قصص

لؤي حمزة عباس

إغماض العينين

أزمنة

لؤي حمزة عباس

إغماض العينين

قصص

إغماض العينين

- لؤي حمزة عباس .
- العراق – البصرة 1965.
- دكتوراه آداب ، يعمل في ميداني التأليف والتدريس الجامعي.
- صدر له :

– (على دراجة في الليل) ، قصص ، دار أزمنة، عمان 1997.
– (العبيد) ، كتاب قصصي، دار أزمنة، عمان 2000.
– (ملاعبة الخيول) ، طفولات قصصية، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2003 .
– (سرد الأمثال) ، دراسة ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 2003.
- (الفريسة) ، رواية، دار الشؤون الثقافية ، بغداد 2004.
– (كتاب المراحيض) ، رواية تعرف ، دار أزمنة، عمان 2007.
– (سلوان السرد)، دراسة، دار الشؤون الثقافية، بغداد 2008
– (إغماض العينين) قصص، دار أزمنة، عمان 2008
- (المكان العراقي/ جدل الكتابة والتجربة)، معهد الدراسات الإستراتيجية، بيروت 2009
– (بلاغة التزوير) دراسة، الدار العربية للعلوم، بيروت 2010

- فاز بجائزتي مجلة (الأقلام) للقصة القصيرة لعامي 1992 –1993 .
- فازت مجموعته الأولى بجائزة الدولة التشجيعية 1997.
- فازت قصته (إغماض العينين) بجائزة موقع كيكا للقصة القصيرة 2006.
- فاز بجائزة الدولة التقديرية للقصة القصيرة في العراق عن مجموعة (إغماض العينين) 2010

إلى: تميم ومؤمل

.. إحساس داكن، كثيف، يتوعدني: إن اليد التي أفلتت القلب مرةً لن تستعيده إلى الأبد.

رأى الطفل، في اللحظة التي أُطلقت النارُ فيها، يركض في شوارعٍ غريبة، موحشة.

رآه، وقد اندفعت الرصاصةُ، واقفاً على ضفة، تتلاطم خلفه الأمواج، وجهه هادئ، كما لو لم يركض في شارعٍ أبداً، ويداه مسدلتان، حتى إذا اخترقته الرصاصة أغمض الطفلُ عينيه . هكذا تصوره . تاركاً جسده، يسقط، بلا صوت، على الإسفلت.

منطق الطير

(1)

كان بجبال الصين رجل مشغول بتحطيم الأحجار، كانت عيناه تذرفان الدمع على الثرى، تتساقط دموعه على الأرض بغزارة ثم تتحول إلى حجارة .. كلما فتحت كتاب (منطق الطير) تقودني حكاية(فريد الدين العطار)، على نحو ما،إلى الكتابة، ربما لأنها تقع خارج حدود الممكن، داخل المشقّة والوهم والمستحيل، لكن ما يوحد فعل الرجل مع أفعال الكتابة في نفسي هو الألم الذي ينتجه كل منهما، هذا الألم الذي لا يخلو من رجاء بعيد، حيث ينشغل رجلٍ واحد بتحطيم جبل، وبمقدار ما تكون مهمته صعبة تكون الكتابة فعلاً دائم التشوف في محاولته لالتقاط معنى الحياة الخفي وهو يقع على الدوام في أقصى التجربة الإنسانية وراء الواضح والممكن والمحدود، هذه التجربة التي تتجسد مع كل كتابة جديدة كما لو كانت تُعاش لمرتها الأولى، إنها التجربة التي تدفع إنسان اليوم ليعيش حالة توتر دائم، وهو يقف وجها لوجه أمام الدمار والموت والتعذيب والوحدة، إنه بتعبير (أرنستو ساباتو) " إنسان الحالات المتطرفة وقد بلغ، أو على وشك البلوغ، نهاية وجوده" حيث يبدو الكاتب، في مثل هذه النهاية، وحيداً في مواجهة العالم وفي صلب وحدانيته يواصل رجاءه...

(2)

مع تحطم الحجارة وابتكار الكلمة تتقارب الصورتان ويتداخل المشهد، ثمة دمعة تذرف، (من عين الرجل أم من عين الكاتب؟)، إنها تسقط على الثرى لتتحول في سحر متصل إلى ما يبني العالم من حجارة وكلمات.

(3)

على حافة حرب الثمانينيات، قبل ما يقارب ربع قرن من الزمان العراقي، ولد جيل من الكتّاب، وتلك حكاية أخرى، لم يكن أمامهم من الجبال ما يحدّ من قدراتهم على النزول عميقاً إلى قاع المشقّة ومواجهة الوهم لإنجاز عوالم لم تكن تطمح لنسخ العالم أو لسلخه وإقامة عالم بديل عنه، كانوا مشدودين لطموحهم في ابتكار عوالمهم وسط روائح الدم والرماد، وقتها لم يكن الوطن وطناً، كان ثكنة تسورها أناشيد الحرب في غيب الصحراء. مات منهم من مات، كما في الحكايات، وعاش من عاش ليجد نفسه، وقد مر ربع القرن سريعاً، يخطو داخل (منطق الطير)، إنه يستقر الآن في الصفحة التي ينشغل الرجل فيها بتحطيم الأحجار.. لم يكونوا في حلم الكتابة ليهربوا من وطنهم وهو لا يبدو في ربيع القتل وطناً، بل كانوا يبحثون عما يمنح الحياة، هذه الكلمة المستحيلة، معنى. إنهم مشدودون لطموحهم في ابتكار معانيهم، حيث يتحول الدمع، في خاتمة الحكاية، إلى حجارة، وتتسع الكلمة لتغدو وطنا.

اتصال

كان شعور ما، غريب، يعتمل في صدره منذ أول النهار، أحسّه يتصاعد مع أنفاسه وينتشر حوله حتى ليكاد يكون، بالنسبة له، مرئيا. بعد كوب الشاي قرر أن يُكمل قراءة الكتاب، تصفّحه متمهلاً وهو يستعيد وقائعه بشوارعها ووجوه أصحابها، استغرب بقاء قصة واحدة من قصصه ورأى الرجل فيها يهيم في شوارع القاهرة، يترك شارعاً بزحامه وجلبة باعته ليدخل آخر، حتى إذا أحسّ بالجوع دخل مطعماً شهيرا على ضفة النيل وتناول، بعد حوار مع صبي المطعم، صحناً من الفول. كان يتنفس مع قراءته روائح المدينة القديمة، يتلمس جدرانها ويتحسس طبائع أُناسها. أغلق الكتاب وفكّر أن يشارك الرجل متعته، خرج من شقته بالبجامة، ترك الباب مواربا وسار في الممر الطويل، على البلاطات النظيفة، ثم نزل سلم الطوابق الثلاثة واشترى، من دكان البركة في الطابق الأرضي، علبة فول بأصبعي فلفل معقوفين على الغطاء، وعاد ليسخنه مع قليل من الزيت. رنّ هاتفه النقال فأحسّ على الفور بالشعور يعاوده بعد أن تناساه قليلا.. لكي يُخفف عن نفسه قلق الاتصال اختار لهاتفه رنّة تصاعديّة، تبدأ خفيضة لا تكاد تسمع، كأنها لا تعنيه، ثم يترك للرنين أن يقوده لمكان الهاتف بعد أن ينسى عادة أين وضعه. كان المتصل صديقاً بعيداً، قال بصوت واضح إنه محمود، بعد جملة أو اثنتين بدا خلالهما متعجلاً، فذهب به الظن لمحمود آخر وسأله عن أحواله، أجابه بصوت لم يخف توتره بأنه محمود، محمود ناصر، فعاود الترحيب وقد إزداد قلقه، سأله بلا مقدمات إن كان قد حدث شيء في العمارة، أجاب بعد قليل من التردد بأن الوضع طبيعي، أعاد الآخر سؤاله كأنه لم يسَمع إجابته وأضاف:

. هل جارك، قاسم، بخير؟

هاله وضوح السؤال فحاول أن يتأكد مما سمع، لكنه تذكّر باب الألمنيوم المفتوح على شقة قاسم الفارغة، وأذهله عدم انتباهه لخلو الطابق في مثل هذا الوقت من النهار. إنكسر صوت الآخر وهو يرجوه أن يتأكد وسيعاود مكالمته.. كان البخار يتصاعد وقد ملأت الشقة رائحة الفول.

قطرة دم لاكتشاف الجسد

(1)

من لحظة صادمة، كثيفة ولا نهائية، يتولّد إحساسه بالجسد، وهو يدخل منفصلا عنه إلى غرف الفنادق، يتعرى في حمام الماريوت، تحت الأضواء الساطعة التي تُمطر من أوانٍ زجاجيّة شفيفة أو مغبشّة، تلتف أزهارها على نوياتها المشعة معمقة إحساسه بجسده وباللحظة التي يعيش فيها داخل مكون عطري آسر وغريب، عطر النظافة المستحيلة والنوايا المرتبة والأجساد الغريبة الغائبة، كأنه في لحظته تلك أول الداخلين إلى الغرف، كأنه في خطوته المتأنية يمحو أجساداً خطت من قبله، يغيّب ظلالها ليدور في الدواخل المعقّمة، تلاحقه روائح المطهرات، تلمس جسده أضواء الغرف، تعريه، تكشفه، تكرره في المرايا.

يرفع قدمه لينزل في بانيو الشيراتون صقيل البياض، يستلقي في حوض المعدن تاركاً الماء ينزل من الحنفية عريضة الفوهة، يحسه يملأ الحوض على مهل كأنه ينزل من حنفية بعيدة، ضيّقة الفوهة، يلمس حافتي قدميه ثم يبلل سمانتيه قبل أن ينتقل إلى قاع فخذه ويزحف بطيئاً إلى ظهره ورقبته. يفتح عينيه، في اللحظة التي يغلق الآخرون فيها عيونهم، ليرى حمام الكونتننتال برفاهيته الخضراء ومقابضه وحواف إطاراته وحنفياته المذهبة.

لحظة لا تفسير لها، يعيد فيه انتباها عميقاً لجسده، بأعضائه التي لا انسجام بينها، وبتفاصيله التي تستفزه بشاعتها، ربما بفعل المرايا التي تنتشر على الجدران في الحمام، وفي ركن الغرفة، وعلى أبواب الدولاب بأوجهها الداخلية والخارجية، مرايا طويلة، أطول من جسده وأعلى بأطر صقيلة مفضضة، وأخرى دائرية بأذرع متحركة وأطر مذهبة، يقترب منها فيخيفه مرأى شعيرات وجنتيه وقد استطالت وتعملقت،

يُغمض عينيه ويتراجع على منشفة القدم ثم يستدير ويفتح عينيه فيكون بمواجهة جسده العاري في مرآة الممر الطويلة المواجهة لباب الحمام المفتوح، أمامه مرآة وخلفه مرآة، وفي المرآتين يرتسم جسده عارياً، غريباً ، جسداً للملاحظة والدهشة والسؤال.

(2)

إنها اللحظة التي فكّر فيها بالكتابة عن الجسد، عن رؤيته له وقد انفصل عنه محلّقاً في جزر نظيفة مقفلة، وعن إحساسه به، بأعضائه وهي تتكشف وتُضاء، وهي تُرمى مثل شريحة تحت عين أحاسيسه، في عزلة الماريوت أو الشيراتون أو الأنتركونتننتال، في متاهات الهلتون أو الرويال، في سماواتها المزججة.

يقترب من جسده لا ليدخله ويغيب فيه بل لينظر إليه ويدقق في معنى أن يكون جسده هو، جسده وحده، جسد وحدته، بيتُ إلْفَته، وملاذ دهشته، صوته، وكهفه، علنه، وخفاءه، وجوده وعدمه، حضوره وغيابه، حياته وموته، مثلما يكون جسد خاصته وأحبائه، جسد اللحظة التي وجد فيها هناك مثلما يوجد فيها هنا، جسد الأجساد التي تفرّقت، والأجساد التي التمت، الأجساد التي عاشت فيه طويلاً فكان بيتاً تأنس إليه، تنام في غرفه، وتأكل من طعامه، ثم تروح في طرقاته وتجيء، الأجساد التي يذكر مرورها ويستعيد أصواتها، مثلما هو جسد الأجساد التي ماتت على مرّ أزمانه ودفنت فيه.

(3)

كلما حمل حقيبته وسافر كان يسافر لجسده منفصلاً عن زحام الأجساد وتلاحمها، كأنها تعيش في سوق ضيّق وقديم، أجساد متداخلة برؤوس لاعدّ لها، ما

أن يُنادى على أحدها حتى يلتفت جمع منها، جميعهم يحملون الاسم نفسه، جميعهم ينتظرون النداء نفسه، جميعهم يأملون بلحظة يكونون فيها بمواجهة أجسادهم، وهي اللحظة التي يكون فيها وحيداً، ينام عارياً ويصحو عارياً، يُحس لمس الهواء البارد مثلما يُحس ملمس الغطاء ويتنفس الرائحة، يُحس شعرات إبطيه وقد استطالت وخشنت، واحتكاك بطنه كلما انقلب، وتقلّب عضوه في ليونته ورخاوته، في دعته وخذلانه، في وحشته واستكانته، خلافاً لما رآه لحظة نظر إلى مرآة الممر الطويلة وفكّر بالكتابة، كان، عندها، يراه وقد نزل ثقيلاً، بادي الغلظة، كما لو كان ملصقا أسفل البطن، بنيّاً، أقرب إلى الرمادي المسّود، تزيد من سواده شعرات العانة الخشنة.

(4)

كان لكل عضو من أعضائه حيّز في ذهنه يعيش فيه مخلّصاً من جاذبية الأعضاء الأخرى، بعيداً عن علاقته اليومية بها، يُحلّق في فضائه الشخصي، ينكمش ويمتد، يتنفس، ينفتح وينسد، عضو حر، مكتمل بذاته، يستقر في مرأى خياله حالما يُحس جسده تباعد أعضاء مشغولة بذواتها، قبل أن تنفصل هي الأخرى لتتوزع في أعضاء صغيرة، في طريقها إلى التبدد النهائي في حركة مديدة واسعة، فالأعضاء الصغيرة ماضية للتحلل إلى أعضاء أصغر يحتفظ كل منها بحيّزه في فكرة الجسد، مثلما يحتفظ بذاكرته وروحه غير المرئية.

(5)

يتذكر لحظة زلّت به قدمه فسقط في شط العرب (إنه الجسد يتحرر منتقلا من ربوع اليقظة إلى مغاور النوم: يراجع أو يتلمس أو يستعيد) كان في الرابعة أو الخامسة من عمره، وكانت الفتيات يتوجهن مع العصر إلى الضفة في المسفن القديم، لم تكن بيوتهن تُبعد كثيراً عن المسفن، يمنحن أنفسهن لهواء الشط وظلال

أشجار الضفة ويواصلن يوما بعد آخر حديثاً لاينقطع، لم يكنّ يتطلعن إلى وجوه بعضهن، كانت وجوههن تتطلّع باتجاه الشط، لا إلى ضفته المقابلة، بل لنقطة بعيدة لا تُرى حيث تأتي البواخر بأعاجيبها وروائحها ووجوه بحارتها متوجهة إلى ميناء المعقل، ما أن تلمح المسفن حتى تُصفّر، مع صافراتها تنقطع أحاديث الفتيات وتلتمع حدقاتهن.

ثمة حلم لكل منهن ينتظر متذرعاً بجولات العصر، يشبّ في حميمية الصداقات وسريّتها المخبوءة في الأحاديث اليومية العادية والقريبة إلى الإبتذال، في واحدة من جلسات الشط كان يستمع لصوت خالته، وهو يقفز من صخرة إلى صخرة، كان صوتها بالنسبة له حبل الجنّة الممدود وقد انقطع فجأة، انقطعت مع قفزته أصوات الفتيات، كأنه بقفزته تلك قد أطفأها جميعاً وغيّب وجوه صاحباتها، قبل أن تملأ فراغ العالم صافرة طويلة محشرجة فتخطيء قدمه الصخرة، يميل في نزوله ويُحس بنفسه منجذباً إلى أسفل بين عالمين من هواء وماء، كان زمن الغرق شريطا خاطفاً من الصور، حيوانات وبشر وصخور: حيوانات بوجوه بشريّة، تلتفت نحوه فاتحة أفواهها، وبشر بأجنحة وذيول، أجنحتهم تتخاطف وذيولهم تضرب، كانوا يتألمون في صعودهم وهبوطهم، وصخور تتشقق مثل أفواه عميقة جائعة، ومن بينها تمرّ، خاطفة هي الأخرى، وجوه يعرفها، وتستعاد أحاسيس قديمة، أقدم من عمره، وروائح يستحيل عليه، في لحظته المائية تلك، تحديدها. رأى الأشياء تتداخل في الوقت الذي فتح فمه داخل الماء ليشهق، كانت ذاكرتُه مثل زر ضغط فور نزوله إلى الماء فأضاء في رأسه مشاهد كثيرة، وكان عمره يختزّل متناهياً قبل أن تمتد يد إلى الماء (يد خالته؟) فتسحبه من أعلى دشداشته لترميه بقوة الخوف إلى الضفة.

(6)

منذ تلك القفزة، قفزة الحياة والموت، بدأ ينمو داخله شعور بجسده وقد انفصل جسدين، جسد الماء وجسد الهواء، ولم يكن يدري أيهما، بالنسبة له، جسد الحياة وأيهما جسد الموت. إنهما معاً يكثّفان شعوره وهو يقفز بين الموت والحياة، ويعيدان

أمام عينيه الصور والوجوه والروائح والأحاسيس. كانت لحظته تلك أقدم بعقود طويلة حافلة من لحظة وقوفه عارياً بين مرآتين، وإذا كانت مرآة الممر الطويلة بمواجهته حينما تراجع مغمض العينين ثم استدار، فإن وراءه، أبداً، مرآة السقوط بحلمها الصامت الذي لا ينتهي.

(7)

بين بدء وانتهاء يخطّو ناظراً لجسده من الخلف ومن الأمام في وقت واحد، يرى خلفيته باستدارتها وبالهوة المشعرة الفاصلة، مثلما يرى بطنه قليل الانتفاخ، يستدير إلى الجانب فيحس انتفاخ بطنه كريهاً، تحدّب ظاهر يتبعه انخفاض سريع كأنما قُطع بسكين حادة لينتهي بشعر عانته المجعد. يكمل استدارته ناظراً للمسفن والبيت، للهواء برطوبته القديمة، للخالة وظلال البواخر، ولذكرى المرأة التي تأتي من مقبرة الأطفال. إلى الجهة الأخرى من الشط، خلف الأشجار البعيدة الباسقة، ثمة مقبرة للأطفال، ربما بدأت بطفل غريب حطّ في قبر منفرد ثم بدأ يجتمع من حوله موتى أطفال منطقة المعقل، يستمّعون نداءه فيعلمون أنهم سيكونون هناك، يؤنسون بموتهم موت الطفل الغريب ويردون عنه الوحشة، حيث ينام الأطفال، نومهم الأبدي، قريباً من بيوت أهليهم.

لم تكن المقبرة بالنسبة له، ولم يتجاوز الرابعة، غير مجموعة من الحكايات الليلية والشموع، مواكب من نسوة صامتات يعبرن من أمام المنزل، غالباً ما تبكي من بينهن إمرأة واحدة أو امرأتان بكاء يزداد حرقة كلما اقترين من المقبرة.

ستظل هِذه المقبرة عتبته لعالم مجهول، تنمو معه وتكبر، إنها مقبرته، مقبرة دواخله التي سيحس بها خلف كل جدار يستند إليه، سيراها بعد أقل من عشرين عاما حينما سيقف على الساتر في ليالي شرق البصرة خلال حرب الثمانينيات الطويلة المظلمة، كما سيراها بعد ذلك بأكثر من عشرين عاماً أخرى حينما سيخطو عارياً في غرفته في الطابق الخامس من فندق ماريوت الكويت، يقف أمام الستارة بلونها

الأخضر المتناغم مع رفاهية الغرفة، يسحبها قليلاً ليفاجأ بأن نافذته تطلّ على مقبرة واسعة اندرس كثير من قبورها واصفر عشبها.

إن كان قد صدّق بأن خلف الساتر، في ظلمة الحرب المطبقة، تقع مقبرة طفولته، حيث تحمل الريح في ليالي الصمت النادرة أصوات الأطفال، فإنه لن يُصدّق بأن فندقاً راقياً يمكن أن يمنح جهته الشرقية لمقبرة قديمة واسعة، لكنها مقبرته هو، مقبرة هواجسه، دهشة يقظته ومنامه، تنتقل معه حيثما ذهب وتطلّ عليه حيثما تشاء.

(8)

مع غروب أحد أيام المسفن تسلل ليجلس على الدكة إلى جانب باب المنزل تحت شجرة البمبر وقد بدأت تنتشر عطر قدّاحها الأبيض، كان ذلك واحداً من أوقات الحلم التي ستعيش في دواخله طويلاً، على الرغم من خوفه من وجود المقبرة، هناك، خلف الأشجار وقد رآها، من مكانه على الدكة، تتقارب في عتمتها الخفيفة لتشكّل صفاً من نساء طويلات يحرسن ليل الأطفال الموتى. كانت إحدى النسوة قد انفصلت عن الصف، سحبت أيديها من تشابك الأغصان وحرّكت أقدامها قبل أن تدفع خطواتها باتجاه الطفل الجالس في حلم القداح وهو يتصورها ستقف عند نقطة ما من الطريق لترفع يدها المورقة، تشير إليه، ثم تقربها من فمها مناديةً باسمه قبل أن تختفي، لكنها واصلت خطواتها، مع كل خطوة ترتفع دقّات قلب الطفل، فامرأة الحكاية لاتريد أن تقف أو تختفي، لاتريد أن تعود شجرة تطلّ على قبر. إقتربت منه، نظرت إلى عينيه ونطقت باسمه ثم قبلته قبلة وحيدة على خده الأيسر وواصلت مسيرها.

سيمرض الطفل أياماً، يرتجف في منامه، ثم ترتفع حرارته ويهذي عن طفل ينام في مقبرته وحيداً، وعن أشجار يتحولن مع الغروب نساء.. كلما أغمض عينيه يشاهد وجه المرأة يقترب وبريق عينيها يشع.

(9)

لم يكن يعي ما يحدث من حوله، إمرأة تجيء في غشاوة الغروب من أقصى الأشجار لتقبّله، وخالة تفعل الأعاجيب. كانت خالته تسحره بلا معنى أفعالها: بلا معنى أن تمضي قبل وقت من مجيء صاحباتها إلى غروب المسفن، يمشي إلى جانبها، يحس تباطؤ خطواتها وضغط يدها على أصابعه كلما اقتربا، ثم تفلت يده، تتركه بعيداً عن الضفة وتكمل خطواتها. بلا معنى أن تعيش أغاني عبد الحليم أياما وهي تستمع إليها من صوت الجماهير، ولا معنى أن تتأخر عن موعدها أياماً ثم لاتمضي أياماً أخرى إلى المسفن، وأن تهجر العندليب مواصلةً انتظارها له، وفي اللحظة التي يعلن فيها عن إحدى أغانيه تغلق الراديو لتنفجر بالبكاء، كانت لسلوك خالته غرابة ساحرة تقربه منها ليعيش بقلبه الطفل في قلب عالمها.

(10)

عالم من مدن وهمية وصافرات وسفن، سفن كثيرة تروح، سفن كثيرة تجيء، ووجوه غريبة بسحن دبغ جلودها هواء البحر ومنحها ماؤه مسحة طينية سريعاً ما تزول بعد استقرار السفن على الضفة لتعود إلى تلونها البشري، حتى تصوّر سفن شط العرب بصافراتها ودخانها وبحارتها وهم يطلّون من على الأسطح ويلوحون، لم تكن تأتي إلا من حكايات خالته، فلا مكان للهند والسند غير حكايات الليالي الصيفيّة حينما ينام إلى جانبها على سطح المنزل ويستمع إليها تواصل بصوت خفيض أحاديثها عن سادة يعيشون في قصور عالية، وعن فرسان يصولون ويجولون، وعن عبيد يرعون في غياب سادتهم رغبات سيداتهم. كانت حكاياتها غالباً ما تنتهي، في الأيام التي تعيش فيها الأغاني وتخرج مبكرة إلى الضفة، بسفينة تأتي وبحّار ينزل، يملأ عطره الغريب المسفن ويدخل البيوت فتفتح الفتيات النوافذ، يترقبن خطواته وهي تقترب وتتصاعد نبضات قلوبهن وهن يحلمن بالباب الذي سيقف أمامه، وبيده ذات الخاتم ترتفع لتدق. لكن الخالة لم تكن تنتظر مجيء البحّار فقد ذهبت إليه ولم تعد بعد أن عاش الطفل ساعات طويلة مجنونة معها.. كانت تترصد صمت المنزل لتغلق باب الغرفة، تواجه مرآة الزينة وتحكي عن الأمواج،

وعن اليد بخاتمها المنقوش وهي تتلمس فضة جسدها، يرى صورته في مرآة منضدة الزينة مثلما يرى وجه خالته مذهولاً بعينين مشدوهتين، ويرى أصابعها تتخلل شعرها المفتوح وتتلمس وجنتيها، ثم تخلع ثوبها المنزلي متحدّثة عن لمسة ساحرة على الرقبة وأخرى على الصدر وثالثة على السرة حيث تتعالى الأمواج فتسكر اليد ويضيع الخاتم.

(11)

خففت من ضغط أصابعها ثم أفلتت يده وأوصته، بسرعة ودونما تركيز، ألا يذهب بعيداً وألا يقترب من الضفة، ثم التفتت لتمسح المكان من خلفها قبل أن تلف العباءة وتكمل خطواتها. يتصورها تمشي خفيفة على لوح الخشب ثم تغيب كما لو كانت تختفي في الفضاء الفاصل بين حجر الضفة وخشب المركب، مثلما يتصور نفسه وقد وقف وحيداً تحت الشمس، يتنفس رائحة الشط بزفرتها الخفيفة في مثل هذا الوقت من النهار ثم يسمع صافرة مخنوقة لزورق بعيد، زورق لايرى لكنه يرسل صيحته غير مفهومة في سماء الظهيرة، بعدها يرى نفسه وقد اندفع هو الآخر باتجاه المركب، وجوه بشريّة ممسوخة وحيوانات وصخور مفتوحة الأفواه ترتسم أمامه في خطواته على اللوح، يستمع في صعوده لاصطدام الموج بالضفة وقد اكتست لحما من طحلب دسم قاتم الاخضرار.

أكمل صعوده مستغرباً لمرأى الشط من على سطح المركب، رأى البيوت والأشجار وعالم المسفن غارقاً في سبات الظهيرة، ثم عبر الحبال الغليظة المرميّة ونزل على سلّم خشبي قصير إلى الداخل برطوبته ورائحة زيته التي لا تُطاق، مشى في ممر ضيّق بين صفّين من الأبواب المتقابلة ساحباً قدميه بجهد كما لو كانتا عالقتين في حوض من الزيت، سمع همهمة خلفّ أحد الأبواب وكان المركب يصعد ويهبط فاستند بيده إلى جدار الخشب، إقترب فتحولت الهمهمة إلى استغاثات قصيرة متلاحقة، دفع الباب فوقعت عيناه على العباءة مرميّة على أرض الغرفة الضيّقة، كانت خالته مغمضة العينين تزحف بظهرها على العباءة، وكان جمع من العبيد

يتراءى في ضباب ذاكرته وهم يملؤون الغرفة بصدور عارية وعضلات مفتولة، أجسادهم تلمع في ظهيرة المركب.

(12)

كلما أغلق باباً من الأبواب ليعيش وحيداً مع جسده تطلّ عليه، تقاسمه وحدته، تحدّثه أو تنصت إليه، تتحرك من خلف ستار، تدفع باباً جانبياً وتدخل، قد يلتفت فيراها واقفة في منتصف الغرفة، وربما يفتح باب دولاب، بعد أن ييأس من حضورها، فيراها تبتسم له وقد أطلّت برأسها من خلف الثياب، حتى اعتاد حضورها، بأثواب منزليّة مزهرة أو بعباءة سريعاً ما تسقط لينكشف جسدها فتياً فاتن البياض، ينام أحياناً من دون أن يحدّثها، كما حدث في غرفته في ماريوت الكويت، لم تحدّثه هي أيضاً، كان مشغولاً بالمقبرة خلف النافذة وكانت تعرف ذلك. جلست على الكرسي القريب من السرير والتقطت تفاحةً خضراء من صحن الفواكه وانشغلت بتقشيرها.

كان حضور طيفها يؤلمه في سنواته الأولى فيبكي ما أن يراها في مرآة الزينة تتخلل شعرها أو تخطو باتجاه المركب، يدافع عن نفسه بالبكاء حتى تباعدت زياراتها ثم انقطعت فبدأ يحنُّ إليها، لأنفاسها تغمره بدفئها، ولعطرها يأخذه بعيداً، ولقطع ثيابها بخرومها الدقيقة وهي تفصح عن لحمها الشجي، يرى الثياب تتساقط قطعة بعد قطعة مثلما يرى العباءة تطفو على بقعة واسعة من الزيت ولا يراها، حاول أن يعود ليتمشى قريباً من الضفة لكن عالماً كاملاً كان قد غاب من حياته مع غيابها.

(13)

حدث بعد أعوام، في أولى سنوات دراسته الإبتدائية، أن ذهب لاحتفال عيد العمال، إتفق مع مجموعة من أصدقائه للتوجه في عطلة الأول من أيار إلى نقابة عمال الموانيء في قلب المعقل، حيث تُنصب خيام تدور داخلها الكراسي وتعلو الأغاني من مكبّرات الصوت، أعلى عمود كل خيمة يُعلّق مكبّر صوت، أناشيد

وهتافات وهلاهل تختصر النهار بانتظار انطلاق موكب العمال مع أولى ساعات العصر، شاحنات مزيّنة بالأعلام والصور واللافتات، الإطارات العالية السوداء مزيّنة هي الأخرى بقطع من القطن المصبوغ، تتحرك فتتحرك معها أزهار القطن دوائر سريعة ملونة، كانوا يكتبون بالقطن على الأبواب جملاً تتكرر داعية بالحياة للأول من آيار، أجواق موسيقية بآلات قديمة، أبواق وصنوج وطبول عملاقة، وعمال بالبدلات الزرق، دواليب عالية مثبّتة على الشاحنات تُطلق في كل دورة لها دخانا ملوناً يملأ سماء الموكب ويثير حماس الجمهور الذي احتشد على الأرصفة، كان الطفل هناك مع أصدقائه يتدافع مأخوذاً بالأصوات والألوان والأعلام والوجوه، قبل أن تستقر عيناه على حلقة راقصة في إحدى الشاحنات، مجموعة من النسوة منفصلات عن الجمع، منشغلات بعيدهن الخاص، يصفقن وينقرن الطبول، وسط دائرتهن كانت خالته تهيم راقصة وقد ربطت خصرها بقطعة من قماش وردي، أخذت عيناه تغيمان فور مشاهدتها فقد مرَّ زمن طويل لم يرها فيه، لم تكن خالته على نحو مؤكد لكن الجسد الذي كان يحلّق في سماء سعادته كان جسدها وقد نحل بعض الشيء فخفّت حركته، وطال شعرها فتناثر مع كُل استدارة، تسحبه بتمايلها وخفّة حركاتها من ضجة الموكب لتعيده إلى عالمها فيحس بنفسه يعلو ويهبط كما لو كان ما يزال واقفاً أمام باب مفتوح في إحدى غرف المركب.(إنها الصورة التي ستعاوده بعد عقود ، تملأ فراغ وحدته في فندق كمبنسكي في عمان، أو فندق أبكس انترناشيونال في خريف أدنبرة ساحر الجمال، وهي تقلب طرف شرشف، أو تحرّك ستارة، أو تضيء مصباحاً على طاولة.. ربطة الخصر بقماشها الوردي، الحركة الخفيفة الآسرة، والشعر المرسل الطويل).

(14)

حاول أن ينفصل عن الناس ليخطو متابعاً الشاحنة، لكنها واصلت اندفاعها، كان حصاره يضيق كلما تقدم، حاول تسلّق السياج القصير مدبب النهايات لينزل إلى الشارع لكن شعوره بالألم وقد تفجّر في يده غيّب المشهد من أمامه للحظات حتى

عاد مع الضجّة التي بدأت تتصاعد من أكثر من شاحنة، إلتفت فرأى العمال، أصحاب البدلات الزرق، يهتفون ملوّحين بصور شخص لم يره من قبل وقد غيّر الانفعال من ملامحهم، سمع هتافهم واضحا مثلما سمع الاسم (هل كان لصاحب الصورة؟)، انطلقت على الفور من أكثر من مكان على الرصيف رصاصات بعضها اخترق الصور وبعضها البدلات ليستقر في أجساد العمال، صعد رجال غاضبون إلى الشاحنات، بدأ تشابك بالأيدي ومواجهات بالعصي وأعمدة اللافتات.. كان ذلك المشهد أول الدروس التي ستتكرر عليه بوحشيتها وقد أرعبه منظر الأجساد المتساقطة، ومنظر الدم وهو يسيل.

قرب المدرسة الإنكليزية

أسند مرتبته إلى الجدار بعد أن بدأ الألم يعتصر أسفل عموده الفقري، لم ينتبه إلى ارتفاع الإسفنج حينما اشتراها من بائع المنزليات المصري، أخذ ينام على لحاف القطن بعد أن فرش تحته صحفا عديدة، فكّر وقتها أن يمنع برودة التكييف من التسلل إلى عظامه وقد أحس جسده ينتفض عند فجر ليلته الأولى .. زايله الألم، بالفعل، لكنه بقي يسلم ظهره، كلما استلقى، لصلابة البلاط، وبقي جسده محافظا على أقدم طبائعه في النهوض المبكّر، كأنما ليطيل من وحشة نهاراته، ومن لامعنى أن يدور وحيدا في شقة فارغة، يطل من نافذتها في الطابق السادس على عالم تبدو(حولّي) فيه، حيث سكن قرب المدرسة الإنكليزية، مثل ساحة خلفية لعالم بعيد، وهو، وحده، يراقب أنفاس الصباح منتظراً اللحظة التي يلمس الضوء فيها جوانب العمارات السكنية، وسطوح السيارات، مترقباً، مع أول الأصوات، إطلالة السيدة الهندية في العمارة المقابلة، بقصرها وسمرتها الداكنة، بشعرها الملفوف دون عناية، وبسنواتها التي تجاوزت الخامسة والأربعين، هكذا قدّر، تفتح باب الشرفة المصوغ لتنظر إلى الشارع، مع كل صوت.

* * *

في الجريدة كان يحدّث عبد الرزاق، بعد أن صعدا إلى طابق التحرير، عن البلد الذي يبدو مثل عمارة نظيفة عالية، عالية جدا، قال وهو ينظر إلى وجهه في مرآة المصعد الضيق شديد الإنارة. وفي الممر بعد أن أخذتهما برودة الداخل قال بأنك لن ترى أبدا سكان الطابق الأخير، مهما حاولت، وهم لن يروك بدورهم، الطوابق الأخرى يسكنها بشر من كل شكل ولون..

توقف عبد الرزاق فانقطع نقر حذائيهما على أرضية الخشب اللامعة، دفع نظارته إلى أعلى أنفه، وبصوت لا يخلو من تردد سأله :

. هل تتحدث عن حولّي؟

. ليس بالتحديد، أتحدث عن البلد، بشكل عام ..

قال عبدالرزاق وهو يواصل السير:

. انتظر قليلاً، لم يمر عليك وقت طويل.

وقبل أن ينحرف ليصعد السلّم بدرجاته القليلة متوجهاً إلى قسم التصحيح، قال بصوت أقرب إلى الهمس :

. أخشى أن يتهاوى المصعد..

إلتفت عبد الرزاق على الفور، نظر نحوه ثم تساءل :

. نعم؟

. أقصد مصعد العمارة العالية، لا مصعد الجريدة.

ظل عبد الرزاق ينظر، تلتمع زجاجتا نظارته الدائريتان، من دون أن يفهم إن كان جاداً أو أنه يسخر على غير عادته، وهو، بدوره، كان يحاول الخلاص من حلم المصعد، يكشفه من دون أن يتحدث عنه. رأى العديد من الأحلام منذ وصوله البلد لم يبق منها غير صور بعيدة مضببة، لكن حلم المصعد بقي حياً في ذهنه بتفاصيله الدقيقة وغموض مشاعره ، كان يخشى أن يستعيده مرة أخرى كلما أطفأ ضوء الغرفة وأسلم جسده إلى الفراش ، فيرى نفسه في مصعد يتهاوى، يحس بضيق في تنفسه وثقل شديد يملأ صدره وتغيب صورته عن مرايا الجدار، لم يكن يتذكر إن كان صاعدا أو نازلاً حينما ضغط على الزر المضاء على جانب الباب، لكنه يتذكر اللحظة التي رفع رأسه فيها ورأى فتحة التكييف بأضلاعها المثنية، وضع قدمه على مسند الجدار وصعد، مد يده وأمسك بأحد ألأضلاع، كان معدن الضلع باردا يستجيب بيسر لضغط يده، حاول أن يمرر يديه ثم دفع برأسه، مغمض العينين، عبر الفتحة، وكان الهواء يضج من حوله. حينما فتح عينيه رأى الكثير من الفئران الرمادية تقرض سلك المصعد الغليظ، وأحس بها تتواثب على يديه ورقبته وفروة رأسه، كان العديد منها يتساقط، تنزلق أطرافها عن السلك ويدفعها الاصطدام بسقف

المصعد إلى الجدار فتخلّف بقعا دموية سريعاً ما تغيب من أمام عينيه، لكن جموع الفئران تواصل، بمشيئة حيوانية، صعودها. يتوقف بعضها ليلتفت نحوه في لحظة خاطفة، فيرى أعينها الدقيقة في الضوء الشحيح، وتخيفه ملامحها: ملامح بشرية فزعة.

* * *

كان يرى بشر الطوابق الأخرى في الشوارع، تحت الشمس اللاهبة، في الأسواق الرخيصة ببضاعتها المكدسة، يحس تزاحمهم في الليل والنهار، كما يلاحظ أناس الساحات الخلفيّة، الذين لم يحدّث عبد الرزاق عنهم، وهم ينظرون بأعين صامتة عبر نوافذ باصات النقل العام، يتحسس أنفاسهم، حالما يعود، تملأ شقته، تبلل ملابسه المعلّقة على حافة باب الغرفة المفتوح، وعلى المسمار في الجدار المقابل للنافذة، تلاحقه وجوههم بسحناتها المتشابهة وهي تحتمي في المشاهد الخلفية من صور الصحف .. ما كان يشغله أن الكثير منهم يطلون مرة واحدة، بلا أسماء، من بين سطور صفحات المحليات، حيث يغيبون مثل أحجار تسقط بلا صوت.

* * *

في حوالي العاشرة كان يواصل مهمته، يقطع حوادث اليوم ويجمعها فوق بعضها على البلاط، إنه يؤرخ أيامه: لكل يوم حادثة، يرسم حولها إطارا بقلم التصحيح ويمنحها رقما بحسب تسلسل أيامه، ثم يتركها فوق الأخريات. أكمل استدارة الخط على خبر انتحار وافد أقدم على شنق نفسه على إحدى الأشجار، فكّر بالجسد المعلّق، ليس ثمة ريح تحركه، فكّر بالأشجار الكثيرة المشذبة، بأغصانها القوية غير المرئية، وبظلالها في لهب الظهيرات حيث يتوجه في الثانية والنصف إلى عمله في الجريدة، من حولّي، شارع ابن خلدون، إلى الشويخ، عبر الدائري الثالث، حينما سمع صوتاً غريباً وغير مفهوم قادما من أسفل العمارة، كأنه استغاثة لم يتبين لغتها. رأى السيدة الهندية تطل على الفور، تأكد من وقوفها خلف باب

الشرفة كأنها تنتظر نداءٍ ما، خاصاً وضروريا. بفانيلة بيضاء أطل زوجها، هكذا افترضه، رآه مرة واحدة على امتداد أيامه، كان يلف إزاراً أخضر مقلماً على وسطه، تقدم قليلاً لينظر بلا مبالاة، وضع يده على كتف زوجته المنحنية على السياج، وعاد إلى الداخل.

إغماض العينين

ربع ساعة أو أقل هو الوقت الذي يقطعه كل صباح على دراجته الهوائية للوصول إلى المركز الصحي، جرب أن يقطع المسافة على قدميه ولم يزد الوقت كثيراً، مع ذلك فقد ظل مصراً على ركوب الدراجة، يسير إلى جانب الرصيف منتظرا أن يخلو الشارع من السيارات ليخفف من سرعته ويغمض عينيه تاركاً العالم ينسحب من على جانبيه من دون أن يراه، لم يكن ذلك يتحقق على نحو دائم ففي مثل هذا الوقت يكون الشارع في ذروة ازدحامه، لكنه في حال تحققه يمنحه شعوراً نادرا بالسعادة يمتد طوال النهار.

أسند دراجته إلى جدار مخزن المواد الطبّية متحسساً عذوبة اللحظة التي أغمض فيها عينيه وواصل ضغط قدميه على دواستي الدراجة وهو يحس بنفسه مندفعاً في ظلمته الرمادية المحببة، ظلمة يشوبها ضوء مضبب بعيد، لم يدرك إن كانت سعادته في الظلمة التي يتحرّك في دواخلها، أو في الضوء الذي لايكاد يميّز مصدره. هدوء المركز الصحي يمنحه فرصة مضاعفة للشعور بسعادته الصباحية فما يزال أمامه أكثر من ساعة ليصل العمل إلى ذروته، حيث لا يعد بإمكانه أن يلتفت إلى نفسه، لن يدع المراجعون المتجمعون أمام شبّاك التسجيل وقتاً لذلك، يسأل كلاً منهم عن اسمه وعمره ليسجلهما على البطاقة ثم يعيد تسجيلهما في سجل المراجعين، يسأل بعدها عن المرض لا ليعالج بل ليوجّه المرضى إلى الأطباء مدوّنا ملاحظته في ركن البطاقة: باطنية، أو جلدية، أو أطفال، ثم يتسلّم المبلغ منشغلا ببطاقة أخرى..

إنتهاء دفتر البطاقات يحسسه بالمرور السريع للوقت، يسحب دفتراً آخر بعد أن يتصفحه متأكداً من ختم بطاقاته يفتحه على البطاقة الأولى، عدّة نهار عمله دفتر ونصف، تزيد قليلاً أو تقل لكنها تراوح ضمن معدلها المعتاد، كأن المرض

لايُصيب إلا عدداً محدداً من الناس كل يوم، يخفُ بعدها تجمّع المراجعين حتى ينتهي أو يكاد في حدود منتصف النهار. غالباً ما يظل جالساً على كرسيه حتى إنتهاء الدوام فهو لايجد في نفسه ميلاً لمشاركة موظفي المركز جلساتهم حتى وقت الانصراف وهم يتجمعون، على غير أتفاق، في الصيدلية، أو غرفة التمريض، أو المختبر، يتناولون الأطعمة التي أحضّروها معهم ويشربون الشاي وهم يتحدثون متنقلين بأريحية من موضوع إلى آخر، في المرات القليلة التي شاركهم فيها لم يمنع رغبته في إغماض عينيه، كأنما ليحسّ انسحاب المواضيع من حوله بالسهولة التي ينسحب العالم فيها كل صباح.. في المرة الأخيرة إستغرب لسكوت الموظفين، كانت ضجتهم قد خفتت تدريجياً، فكّر بلحظات الإنقطاع المريبة من دون أن يفتح عينيه، وبعد أن طال صمتهم فتحهما ورآهم يحدّقون نحوه، أيديهم تحمل أطعمتهم وأكواب شايهم وعيونهم تنظر تجاهه، وجد نفسه يُداري خجله وسمع صوته خفيضاً يقول بأنه لم يستطع النوم الليلة البارحة، ثم خرج وقد تعالت أحاديثهم فور إغلاقه الباب.

أخذ يشغل وقته بتنظيم بعض من صفحات سجل المراجعين، يرسم حقولا بخطوط طوليّة وأخرى أفقية، ثم يختم بطاقات دفتر الغد، وبعد أن يتناول طعامه ينهض حاملاً كوبه الأبيض بحبة الكرز الصغيرة المرسومة على ظهره بغصنها الدقيق، سيظل الكوب على المنضدة حتى إنتهاء الدوام فهو يُفضل أن يتناول شايه رشفات متباعدة متلذذاً بالمرارة تتصاعد كلما زادت برودته، يتأمل الكوب على الطاولة ويفكّر بأن حبة الكرز غير مناسبة على كوب بمثل هذا الحجم، ويتساءل مرة أخرى: أما كان بإمكانها أن تبدو أكبر قليلاً؟

ينظر، بعد أن يعود، من أعلى شبّاك غرفته عبر سياج المركز إلى الساحة الترابية الواسعة متصوراً ضجة الأولاد وهم يلعبون الكرة، لم ير أولاداً يلعبون من قبل لكنه متأكد بأنهم لن يتركوا ساحة ترابية واسعة من دون أن يثبتوا عليها أهدافهم.. رأى سيارة بيضاء تندفع متباطئة لتقف وسط الساحة، سيارات قليلة تعبر الساحة معظمها سيارات نقل صغيرة، تصوّر عطلاً ما أصابها وانتظر أن ينزل السائق ليفتح غطاء المحرك، نزل بالفعل لكنه لم يتوجه إلى الغطاء، إتكأ على الباب وأخرج علبة سكائر من جيب قميصه، إستلّ سيكارة، أشعلها وبدأ يدخن، نزل بعده رجلان أحدهما

وضع يده على كتف رجل معصوب العينين وهو يدفعه تجاه السائق، تلقاه الآخر وأجلسه بعنف على ركبتيه. في تلك اللحظة أحسّ قاطع تذاكر المركز الصحي بحرارة كوب الشاي، وضعه على الطاولة وسحب يده مستغرباً لارتجافها وعاود النظر، سحب أحد الرجلين مسدسه وأطلق ثلاث رصاصات متتاليات على رأس الرجل معصوب العينين.

في عودته أغمض قاطع التذاكر عينيه، خلافاً لعادته، وقد خُفّ تزاحم السيارات من حوله، وأستمر ضغط قدميه على دواستي دراجته، لم يحس بنفسه يندفع في ظلمته الرمادية، ولم يسأل عن ضوئه المضبب البعيد، في إغماضته كانت اليد ترتدّ مع كل إطلاقة، وكان الرأس ينتفض.

رجـل كثيـــر الأسفار

سألني بماذا تفكر هذه الأيام؟ إستغربت لسؤاله كأني أسمعه للمرة الأولى، وكان بودي أن أقول له إنني أفكر بكتابة قصة عن رجل يسافر كثيراً بين البصرة وبغداد، منذ سنوات وسفره مستمر بحكم عمله، غالباً ما يسافر مرة كل أسبوع وفي أسابيع متباعدة يسافر مرتين، الأولى منهما عادية لا جديد فيها أما الثانية فهي الإستثنائية إذ تحدث بشكل فوري إستجابة لاتصال هاتفي من بغداد، خلالها يرى الأشياء على جانبي الطريق غريبة نوعا ما، وإن لم تمض على رؤيته الأخيرة لها سوى أيام قلائل، يعلل ذلك بانشغاله بالتفكير بالإتصال الهاتفي وبرغبته بالوصول في أقصر وقت ممكن، لكنه في آخر سفرة له وقبل الدخول إلى بغداد بكيلومترات قليلة يذبح على جانب الطريق، هكذا بلا سبب أو بسبب بعيد بالنسبة له وغير معقول، يرى نفسه في اللحظة التي يتم فيها ذلك، وتلك مفارقة القصة فهو يواصل رؤيته حتى بعد أن يذهب القتلة مخلفين جثته بين جثث كان قبل وقت يتحدث مع أصحابها وهم يستمعون، من دون إهتمام يذكر، لأغنيات وأخبار وتعليقات من راديو السيارة.

كانت الجثث مفصولة الرؤوس، رؤوس بعضها مفتوحة الأعين، وقد بدأت أعينها تكتسي بطبقة من سائل كثيف البياض، فتح عينيه وقد تصاعد في فمه طعم التراب المالح، وضع يديه على الأرض ونهض وفي رأسه غير المفصول عن جسده ما زالت الأصوات تتردد مختلطة بشخير الأجساد وهي تذبح، كان يؤلمه أن يمر المسافرون بعد ساعات على المكان ويقطعون أحاديثهم لينظروا من نوافذ السيارات وقد تصاعدت أنفاسهم في جلبة البرامج الإذاعية، وربما أعاد بعضهم حكاية الواقعة، يضيفون إليها قليلاً أو يحذفون منها، وقد يحكون واقعة قتل أخرى لاتشبه واقعتهم

بشيء.. ما كان يحزنه هو أن يرى نفسه ميتاً في حكايات كثيرة تختلف كل منها عن الأخرى حتى لكأنه يموت في كل حكاية ميتة جديدة.

نفض التراب عن ثيابه ثم مسح وجهه ورقبته وبدأ يمشي مندهشاً لخفة جسده وإتساع خطواته، كان يحس جسده طليقاً وقد خفَّ ألمه، لم يكن يلمس الأرض بقدمه حتى يندفع إلى أمام فيرى السيارات تمرُّ خاطفة من حوله يفتح ركابها أفواههم غير مصدقين وهم يرونه يواصل المشي في منتصف الطريق، إلى يساره سيارات البصرة المتجهة إلى بغداد، والى يمينه سيارات بغداد النازلة إلى البصرة، يطلق بعض السائقين منبهات سياراتهم ويزيدون من سرعاتها محاولين مجاراة خطواته مما يزيد من حماس الركاب فينزلون زجاج النوافذ وينادون، لكنه لم يكن يعبأ بما يحدث، كان يفكر أن بإمكانه قطع طريق الساعات الست بأقل من ساعة واحدة وربما أقل من ذلك إذا ما حاول أن يمدَّ خطواته أو يهرول على نحو خفيف ليصل إلى المنزل، سيجد الباب موارباً وستكون زوجته في المطبخ، يسمع طقطقة القدور وهي تفتحها لتتأكد من نضج الطعام وتعيد إغلاقها بعد أن تدق، كعادتها، على حافة كل قدر بالملعقة، تنادي: هل عدت يا ماما، معتقدة أنه الصغير وقد عاد من المدرسة، يتجه مباشرة إلى غرفة النوم تاركاً سؤالها معلقاً في فضاء المطبخ، وفي الغرفة يخلع حذاءه ثم يفتح أزرار قميصه ويرميه على الأرض ليتمدد على السرير وقد بدا القطع أسفل رقبته أقرب في دكنته إلى السواد. ستدخل زوجته الغرفة وما زالت رائحة الطعام عالقة بثيابها، تنظر نحوه فيفزعها أنه يحدّق بإتجاه السقف وقد بدأت عيناه تكتسيان بطبقة من سائل كثيف البياض..

العدســـــــة

في مدخل كراج منطقة البدر توقفت، على نحو مفاجيء، سيارة خاصة بيضاء اللون أمام أحد باصات نقل الركاب بعد أن إكتمل عدد ركابه ودفع سائقه أجرة الكراج ثم تحرّك متوجهاً نحو الباب، لكنه سرعان ما توقف حال رؤيته السيارة تندفع معترضة طريقه، نزل سائقها ملوحاً ومثله فعل رجل كان يجلس إلى جواره، تابعهما سائق الباص، ربما بدافع الفضول، وهو يرى ملامحهما منفعلة ويسمعهما يصرخان وإن لم يتبين كلماتهما بوضوح.

تقدما مسرعين تجاه باب الركاب، فتحاه، ثم أطلا في الداخل وهما يأمران أحد الركاب بالنزول، قيل بأن الراكب لم ينزل، بقي في كرسيه محاولاً الحفاظ على هدوئه وقد شحب لونه، وقيل بأنه تحرّك لينزل، مدّ أحد الرجلين يده وسحبه من كتفه، أطفأ سائق الباص المحرك ونزل، قبل أن يصل رأى أحد الرجلين يفتح الأزرار السفلى لقميصه ساحباً من خلف حزامه العريض مسدساً أسود اللون، إلتمعت سبطانته القصيرة في الشمس وبدأ يُطلق الرصاص مباشرة على رأس الراكب، ثلاث رصاصات في مقدمة الرأس، ورصاصتين أخريين في جهتي الصدر، إطلاقات قيل عنها فيما بعد بأنها لاتصدر إلا عن محترف ولا تصيب إلا لتقتل، عضّ الراكب على أسنانه واعتصر ملامحه كما لو كان يتذوّق طعماً مرّاً، أكثر الطعوم مرارة في حياته، وأصدر من أعلى حنجرته حشرجة غريبة قبل أن يسقط على أرض الكراج.

على الرغم من كونها جريمة عادية يمكن أن تصادفك في أي مكان فقد تجمع الناس فور مغادرة السيارة، كأنهم كانوا بانتظار اللحظة التي تنطلق فيها ليتوجهوا صوب الجثة لالشيء غير أن يلتقوا وجهاً لوجه مع الموت في لحظاته الأولى، كان الرجل ينزف دماً قاني الإحمرار، ربما بسبب إرتفاع درجات الحرارة، وربما بسبب حرارة الرصاصات التي لم تكن قد بردت بعد. أحضر سائق الباص، بعد أن خبا

رنين الإطلاقات الخمس في رأسه وانطفأت حشرجة القتيل، بطانية رمادية مبقعة بالزيت وغطى الجثة طالباً من الناس الإبتعاد، إبتعد بعضهم بالفعل يملؤهم الشعور بأنهم رأوا الموت وسمعوه ويمكن لهم أن يتحدثوا بطلاقة عن الواقعة.

بقيت الجثة ممددة وقد جفت بركة الدم إلى جانبها، كما أن حذاءها أخذ يبدو مع الوقت أكثر إتساخاً كأنها تواصل المسير على طريق مترب، ولاحظ الناس خلال حركتهم أن البطانية تشبعت بدم خفيف الإحمرار، كأنه بقع شاي قديم. قبل العصر جاء رجل خمسيني بشعر أبيض ونظارة ذات إطار أسود ثخين، عدستها اليسرى مكسورة كسراً طولياًّ، قال بأن القتيل أصغر إخوته، ثم طلب من سائق الباص الذي كان يشرب الشاي مساعدته في رفع الجثة إلى حوض سيارة حمل صغيرة. لم يجرؤ السائق على الإقتراب من الرأس، أمسك بالقدمين أعلى الحذاء مباشرة، وترك مهمة رفع الجانب الآخر للأخ الذي دسَّ كفيه تحت إبطي الجثة. مع سقوط الجثة على أرضية الحوض المضلّعة تراءى للسائق أنه سمع أنّةً لم ينتبه إن كانت قد ندت عن الأخ وهو يسمع السقوط، أو عن الجثة نفسها وقد إصطدم أعلى رأسها بحافة الحوض. قبل أن تتحرك السيارة تمنى الأخ بصوت خفيض أن يكون أخوه قد إرتاح الآن فهو، منذ أكثر من عام، كان يعدُّ أيامه. إستغرب سائق الباص وهو يقترب ليستمع للرجل من إنكسار عدسة نظارته وفكّر بأنه يرى العالم نصفين.

عينا رجل المترو

اسبوعان مرّا قضاهما متنقلاً من بيت لبيت، لم يكن ينام خلالهما، كان يقع مغشياً عليه من أول الليل إلى أول النهار، ولما يصحو يحس نفسه مجهداً، بلا ساقين، يحاول النهوض ولايعينه جسده، يعتدل في فراشه قبل أن ينهض أهل المنزل الذي يبات فيه مفكّراً باليد التي امتدت لتكتب على باب شقته وبالإطلاقة وقد تُركت في الظرف الأسمر الطويل على العتبة، يكاد يعرف أنهم هم من فعلوها بوجوههم الطولية وقذارات حياتهم، وحدهم يمكن أن يضعوا الإطلاقة في الظرف ثم يدسوا الورقة المطبوعة مؤكدين بأنهم يراقبونه في كل وقت، وأن الرصاصة المقبلة، لابد، ستكون في رأسه، يغمض عينيه ولا يرى غير وجوههم تترصد من فتحة ضيّقة حركة الناس في الممر.

* * *

كانت أشياء طفليه مبعثرة على الأرض كما تركاها ، وكانا يلتفتان لينظرا من صورتهما الفوتوغرافية إلى نقطة في ركن الغرفة فيبدوان أصغر مما هما عليه الآن ببدلتيهما الشتائيتين وبالفرو البني بالتماعته الفضيّة على ياقتيهما.

كانا يلهوان أمام الشقة في الصباح الذي اكتشف التهديد فيه، رآهما عبر الباب المفتوح يتقافزان وخشي أن يصدما النبتة التي حملها قبل أيام بأصيص الفخار صاعداً سُلّم الطوابق الثلاثة، وضعها علِى أرض الممر بمواجهة الباب ودقّ الجرس، فتحت زوجته فسألها ولم يكن قد سحب نفسه بعد:

- هل تحزرين ما اسمها؟

نظرت نحو النبتة وسألته مستغربةً:

- هل لها اسم هي أيضاً؟

- بالتأكيد.
- وما هو؟
- فكّوي.

قال كمن يناور سراً، وفي الليل حدّثها عن أوراق النبتة التي تشبه القلوب، ملمومة من الأسفل، عريضة مشطورة من الأعلى ولها عروق، قال بأنه اشتراها من أجل أوراقها وكان يسمعها تتبض كلما صعد درجة من درجات السُلّم متسائلاً كيف يمكن لنبتة أن تسمى بيت الغريب. أحس أنفاسها دافئةً وقد قرّبت فمها من أذنه لتهمس بأنه لم يشتر النبتة إلا من أجل اسمها، وكان اسمه كاملاً في ورقة التهديد التي أخرجها من الظرف وألقاها مثنيةً على المنضدة من دون أن يكمل قراءتها، كانت الإطلاقة قد هيمنت عليه مثلما شغلته الكلمة المكررة على واجهة الشقة، لم يفكر بنفسه، عندئذ، لم يفكر بطفليه أو زوجته، كان أحد ما يحدّثه بأن جميع من قُتلوا عاشوا اللحظة بتفاصيلها حتى لو لم تكن ثمة أشياء كهذه.. كان للموت في تصوره لون هو لون الكلمة على الواجهة، وصوت هو صوت الورقة الذي لم يستمع إليه، وملمس هو ملمس الاطلاقة المشبعة ببرودة الصباح.

* * *

اختار أن يتمشى من أول الكورنيش مستمتعاً بمرأى أُمواج الشط وبخلو الشارع حيث تخفُّ حركة الناس والسيارات في صباحات الجمع ويتعالى بين وقت وآخر ضجيج أصحاب الزوارق وهم يصعدون إلى الضفة بدشاديشهم وقد بقعت أردانها زيوت المحركات، أحسهم يمنحون النهار بوجوههم غير الحليقة ونثار أصواتهم جواً خاصاً، حميماً وبدائياً، إتكأ على سياج الحديد متابعاً حركة الزوارق وهي تخترق سكينة الشط فتضرب الأمواجِ صخور الضفة وتتصاعد زفرتها دسمةً، لاذعة. استمع للنداء فالتفت ورأى أحمد يلوح من نافذة السيارة، عندما صعد إلى جانبه قال بأنه يفضل الجلوس في الكازينو العائم، وفي الكازينو وجدا علي خارج الصالة يجلس في ركن الممر الطويل مرتدياً سترته الكتان الرمادية على قميص أزرق بخطوط سوداء دقيقة متقاطعة، جلسا معه فحدثهما على الفور عن العالم

الذي يبدو جديداً تحت شمس الشتاء، وعن المدن وهي تصمت، رغم كل شيء. قال هل تصدقان بأني لم أسمع البصرة تحدثني طوال سنواتي الخمسين، سمعت صوتها هناك في أحد المساءات الباردة حين كنت متوجهاً بالمترو من فرانكفورت إلى دارمشتات، لاحظت فور صعودي رجلاً من بين الركاب القليلين ينظر إلي، تشاغلت بالإعلانات المضاءة خارج العربة وحال مغادرة المترو المحطة إلتفت فرأيته وقد تقدم نحوي، إنحنى قليلاً وسألني بصوت خفيض إن كنت من البصرة، كان في منتصف الثلاثين بسحنة سمراء وعينين زرقاوين مجهدتين ، استغربت للهجته ولم أجب فلم أتوقع أن أُسأل في ليل فرانكفورت مثل هذا السؤال، كلما استعدت صورته في ضوء العربة القوي بسحنته، بعينيه الزرقاوين، بلهجته تأكدت بأنه كلمة المدينة التي لم يسعني سماعها هنا. عندما حضر النادل سألهما علي إن كانا يفضلان القهوة، تركية ممتازة أضاف فيما أخذت الريح تحرك شراشف الموائد النظيفة.

* * *

وضع أحمد كتاب مدام ديولافو أمامه فسحبه علي ثم سأل وهو يتصفحه إن كانا يصدقان بأن المدام قد زارت المدينة حقاً، قال أحمد محتجاً :

- وما المشكلة في ذلك؟
- المشكلة في كتب الرحالة أنفسهم حيث لايبدو أنهم يتحدثون عن مدن حقيقية على الدوام.
- لكنها البصرة بتفاصيل القرن التاسع عشر التي لاتخلو من الغرابة.
- إنها حكاية مدام ديولافوا بزفرتها ورثاثة أُناسها ياعزيزي.

وفيما هم جالسون على الشط في ركن الممر يتحدثون عن العالم الذي يبدو جديداً، استمعوا لرشقة رصاص طويلة ومنتظمة، وأحسوا بها تشق الهواء.

قبل أكثر من ثلاثة أشهر حدث ذلك، يتذكره الآن وهو يخطو في شقته، بالصورة الجانبية لمدام ديولافوا على الغلاف، وبعيني رجل المترو، وبانحناءة علي لحظة انطلاق الرصاص. عند عودته أوقف أحمد السيارة ونزلا ليستمعا لأصحاب

الزوارق وهم يتحدثون حديثاً متداخلاً عن الرجل بسيارته البيكب، عن صرخاته القصيرة المتقطعة، وعن البنادق التي أكلت وجهه. على الحافة المصدوعة للرصيف رأى شظايا الزجاج ملوّثة وأحسّ الرائحة تظلل بكثافتها المكان.

عشق الحدائق المنزلية

في حوالي الساعة السابعة كان واقفاً في حديقة المنزل، يُنصت لأصوات السيارات وهي تنقل أول النهار من مساحته الحلمية التي يتحرك فيها، على الرغم من سطوع ضوء الشمس وتلاعب الهواء، إلى مساحة يومية، معتادة، محاولاً إطالة تأمله وهو يلاحظ الأشجار مراقباً تحولات براعمها، ويعاين الساقية الصغيرة القريبة من السور وبساط العشب الأخضر، مفكّراً بما عليه أن يقوم به، بعد أن يكمل إفطاره، من عمل تحول مع مرور الوقت إلى مصدر متعة بالنسبة له وهو يتحسس شعوراً غريباً لم يحدّث أحداً عنه من قبل، إنه عشق الحدائق المنزلية، بما تخلّفه هذه الكلمات في نفسه من أثر منعش مصحوب برنين جرس بعيد.

إنه بلا شك يحاول إكمال مشهد سعادته مستنشقاً روائح النباتات قبل أن يفتح باب الحديقة متوجهاً إلى المخبز القريب، لكنه لم يصل إلى اللحظة التي يرن فيها جرس سعادته بأثره المنعش ولم يكمل خطواته، فقد تراجع عائداً إلى المنزل، أغلق الباب وبخطوات خاطفة كان واقفاً في المطبخ بمواجهة زوجته المنشغلة بوضع الملعقة الثالثة من الشاي في الإبريق، رفعت رأسها وهالها اصفرار وجهه وتيبس شفتيه وهو يحاول أن يحدثها عما رأى، سحب كرسياً من بين كراسي منضدة الطعام وجلس واضعاً رأسه بين يديه، لم تصدق أنه كان يجاهد محاولاً التحكم بارتجافهما.

إنها الساعة التي يكون فيها إبنهما محمد قد صحا من النوم ونزل من غرفته نحو المطبخ، محمد في العاشرة من عمره، أكمل نصف سنته الدراسية في الصف الخامس الإبتدائي، يحب رسم المناظر الطبيعية، الأشجار الباسقة والضفاف المعشبة والأنهار الجارية بمياهها الزرقاء، في سماء لوحاته تتكرر غيمة مكورة مثل كومة من الصوف، لم يفكر أن ينتقل من رسم المناظر الطبيعية إلى الناس والحيوانات لذلك لم تقلقه أشكالها وألوانها ولم يهتم بحركاتها. كان يحب في صباحات الجمع أن ينزل مع

أبيه إلى الحديقة، يتابعه وهو يواصل عمله وقد ترك له تنظيف العشب مستمتعا بالملمس الإسفنجي لأوراق شجرة البمبر المتساقطة. في بداية العام الدراسي بدأ هواية جديدة يكتب خلالها رسائل لأصدقائه تبدأ كما قال معلّم الإنشاء بـ: صديقي العزيز، ثم يكتب على أول السطر: تحية وبعد، ليدخل إلى الموضوع، وكان قد بدأ كتابة رسالة عصر أمس وترك الدفتر، مفتوحاً، على المنضدة فلم يشأ أن يختمها في الوقت نفسه.

في اللحظة التي نظرت فيها الأم غير مصدقة كان محمد واقفاً في باب المطبخ وقد سمع أباه يتحدث عن الحديقة والليل والموت الذي يزحف إلى كل شيء. تراجع قليلاً ثم استدار صاعداً السلّم، فتح باب غرفته وتوجه إلى النافذة، لم يع معنى الليل والموت في حديث أبيه، أو يفهم العلاقة بينهما وبين حديقة المنزل، سحب الستارة ورأى أشجار السدر والبمبر تنشر مظلة خضراء واسعة، مع حركة الأغصان رأى رجلاً مرمياً على العشب، قريباً من الساقية، فمه مفغور وقدماه مثنيتان، بحركة قاسية، أسفلِ الجدار.

مساء، بعد أن عاشت العائلة أحد أصعب نهاراتها، أكمل رسالته مقترحاً على صديقه في ختامها أن يتأكد من حديقة منزله كل صباح قبل أن ينزل إلى الطابق الأسفل، فربما أثمرت أشجارها رجالاً بأفواه مفتوحة.

زهرة منفردة دقيقة الأوراق

قريباً من سينما الكرنك، على الحائط المنخفض، ما زلت أرى اللافتة، تخطف من أمامها السيارات فتنعكس حروفها على زجاج النوافذ وأبدان المعدن النظيف.

في الحلم أرى كل شيء: الحربة، والطعنات، وجسد الرجل كما رأيته مصورا في الجريدة. أكاد أعتذر له وأنا ادخل حاملاً رسالة من صديق بعيد، فأعرف، في غلالة النوم، أنه لم يمت، وأن يده تمحو الحربة والطعنات وهي تشدّ، كعادتها، على يدي.. يقلّب الظرف متلمساً الطابع المكرر، ثم يرفع يده ليغطي، بأصابع معروقة، ابتسامته.

إلتقينا قبل أن يخطر ببال أحد أن من الممكن أن يحدث ما حدث، وتحدثنا عن أشياء لا أذكر منها غير كريكور سامسا، رأيت العروق على صفحة خده، خضراء، أسفل جروح الحلاقة، وهويحدثني عن سامسا الحزين.

قلت له:

_ إصعد.

وقد سحبت المنضدة الصغيرة إلى جانب الجدار، كان قد نهض مجهداً من رقدته أسفل السرير وما زالت الطعنات مثل عيون صغيرة مغمضة أو أفواه ملمومة على جسده. وضع قدمه على الحافة واستند بيده إلى الجدار، حتى إذا رأيته ينظر من النافذة جلست قرب قدميه الحافيتين، انتظرت قليلاً قبل أن أسأله:

_ هل ترى أحداً؟

_ أرى الشاب على الدراجة.

إلتفت إلى الداخل وأضاف محدثاً نفسه:

_ مرة أخرى...

كان الوقت ليلاً، وقد مشيتُ طويلاً، خرجتُ بعد الظهر من غرفتي كما لو كنت أنفصلُ عن أشيائها، كان الصغير نائماً فاكتفيت بأن أغمض عيني وأتنفس رائحته، عبرتُ جسرِ الكونكريت منحرفاً جهة محطة قطار المعقل، رأيت المحطة خاليةً وسمعت الهواء يضرب سقائف المعدن، فكرت، رغم ذلك، بالقطار وهو يترك الليل ويدخل في النهار، وباللحظة التي وقفتُ فيها داخل حمام عربة السياحة، أنظر من النافذة وأرى مدينةً ما في أول النهار، شيء رائع أن تتأمل مدينةً وهي تصحو. كان العالم من حولي نائماً: الشجر، والسيارات، والدوائر الحكومية، ثم أخذ المطر ينزل خفيفاً حين وصلت بناية بريد البصرة، وقد بدأت ساقاي تؤلماني، فتحت الصندوق وكنت أعرف أن الرسالة هناك، بطابعها المكرر على الزاوية اليمنى، زهرة منفردة دقيقة الأوراق ترتسم مرتين، سألته بعد أن لمس الطابعين عنها فحدثني أنها أزهار التيولب، وهي تضم مجموعة نادرة الألوان، رفع الظرف أمام عينيه وتساءل إن كنت أصدق أن بين فصيلتها زهرة سوداء، ثم نظر إلي متسائلاً إن كان المطر قد بللني، قلت أبداً، كنت أمشي تحته، أراه ينزل من دون أن أسمعه أو أحس بالبلل، وقفت قرب سينما الكرنك، بجانب الحائط المنخفض منتظراً أن تمر سيارة أو أن يعبر أحد على عربة أو دراجة وقد تصورت أن من الصعب مواصلة المشي، لكنني مشيت من دون أن أرى أحداً، إلتفتُ إلى واجهة مقهى أم البروم ورأيتني أنظر وبيدي الظرف، فكرت أننا نحيا، أيضاً، في الصور، والمرايا، والزجاج الشفيف، وأنك تنتظر الآن، وأن أمامي مسافةً أعبر فيها جسوراً وأمر بأشجار وبنايات. لما وصلت كان باب الحديقة موارباً، دفعته ودخلت، من خلفي أخذت السلسلة القصيرة المدلاة تضرب صفحة الحديد، كان المصباح ينشر في الحديقة نهاراً خادعاً، لما رأيت باب الخشب موارباً شعرت أن شيئاً وقع ، حتى إذا خطوت إلى الغرفة رأيت قدميك حافيتين من تحت السرير، ورأيت المنضدة قرب الجدار، أذكر أني سحبتها إلى الجانب، قلت لك اصعد فصعدت، ثم سألتك إن كنت ترى أحداً، لكنك الآن نائم، قدماك حافيتان.

في نهار لاحق أمرُّ قريباً من سينما الكرنك ولا أرى اللافتة، أواصل السير منصتاً لنقر خطواتي على الإسفلت.

طائر من معدن

سألني الرجل إن كنت أحب اصطياد الغزلان، من دون أن يرفع عينيه عن الناظور الموضوع أمامي، قلت أبداً، ودفعته قليلاً إلى جانب المنضدة وأنا أُحس سواده فاضحاً على بياض السطح الرطب. كان المطعم ضاجاً، كعادته نهارات الجمع، وقد إنتظرت جوار الباب حتى فرغت إحدى المناضد قرب المغسلة، أسمع وشيش الماء ينزل متصلاً وألاحظ الناس يحدّقون في ذهابهم وإيابهم، كأنهم لايحدّقون، إلى الناظور. عاد الرجل ليضع الصحن المغطى برغيف الخبز على المنضدة، رأيت يده تمس الحديد بحركة لاهية قبل أن ينحني ليهمس شيئاً عن أبيه الذي كان يصطاد الغزلان لشيوخ الناصريّة. اتكَأُت على الكرسي ونظرت إلى عينيه وكررت بأنني لا أُصطاد أيَّ شيء، أضاف وهو ما يزال يبتسم بأن أباه كان يقول ذلك أيضاً كلما سئل عن الصيد. من أمام المطعم إشتريت جريدة وضعت الناظور في صفحاتها الداخلية ثم طويتها، بقيت حمالته الجلد متدليّةً خارج الطيّة، وضعتها على كتفي وسرت متصوراً الرجل، وقد ترك الزبائن، يطلُّ من خلفي.

لم يكن قد قرر أن يشتري شيئاً محدداً حينما فكّر أول النهار بالذهاب إلى سوق الجمعة، فتح باب الشرفة وأحس أنفاس الشط تملأ الشارع وتمتد إلى الحدائق الصغيرة المتناثرة ثم تتسلق الجدران مبللةً النوافذ ومرطبةً أجواء الشرفات. اعتاد منذ أن سكن الشقة أن يفتح باب الألمنيوم منصتاً لضربات لوح الزجاج المغبّش على أضلاع المعدن ليرى المشهد ويفكّر في النهار وهو ينزلق سريعاً في إناء الليل. كان يسأل ثامر كلما دعاه إلى زيارته كيف يرى العالم من هذا الارتفاع، تبتسم زوجته وهو يجيب بصوت جاد: كما يراه من يعيش في سرداب، فيقول لايمكن أن يكون

العالم نفسه، ثم يحكي لهما كيف أنهم كانوا يميّزون الناس، في بيتهم في البصرة القديمة، من أحذيتهم وأرجل بنطلوناتهم حال مرورهم من أمام نافذة الغرفة الخفيضة، كان ذلك في طفولته، وكان يتصور المدينة تقوم على مدينة أخرى يطلُّ أُناسها عبر الفتحات الضيّقة ومن تحت الجسور والملاجيء والأنفاق. مرت لحظة صمت إعتذر بعدها ثامر وهو يقول بأنه سيبقي غرفةَ نومهما مقفلةً، وستأتي أخته بين وقت وآخر لتنظيفها، أجاب مدارياً شعوره بأن لا داعي لغرفتين حتى، تكفي غرفة واحدة، فقد قضى حياته يتنقل من غرفة إلى أخرى، لم تتسع يوماً لتصبح غرفةً وصالةً مثلاً، ولم تضق لتكون مخزناً أو حماماً متروكاً، كانت غرفة واحدة، وهو على العموم سيجرب طول غيابهم السكن في شقة، أحسَّ الحرج يزايله وهو يُضيف أن الأمر سيبدو كما لو كان يعيش في حكاية قديمة فيها باب مغلق على الدوام، وراءه أناس صامتون، أيُّ أُناس؟ سألت زوجة ثامر، فأجاب: أنتما بالتأكيد، ستكونان هنا، بالنسبة لي، مثلما ستكونان هناك..

جاء ثامر، منذ أكثر من شهر، ليخبره أن القوائم أُعلنت وأنهم إتصلوا من بغداد مؤكدين قبوله ضمن البعثة إلى الهند، كان ممدداً على الفراش، ولم يكن قد فكّر بالأمر حتى تلك اللحظة إلا كما يفكّر بحكاية، إنقلب إلى الجانب وقال إنه لايتصور أحداً يذهب إلى الهند لدراسة فيزياء المعادن، لاتهتم، قال ثامر، سأتدرب بعد إنتهاء المحاضرات على ركوب الفيلة وترقيص الثعابين، كان مزاجه طيباً وهو يضيف بأنه سيراسله كلّ شهر لاكما يفعل الأقرباء بل كما يتراسل العشاق، إستند بيديه ونهض قائلاً يكفي أن تبعث صورتك كلّ شهر، مرةً مع الفيلة وأخرى بين الثعابين. وها هو يقضي نهاراته وحيداً، يتوقع أن يسأله ثامر في أولى رسائله عن أحوال الشقة مثلما يسأله عن العالم وقد أصبح يراه من الطابق الثامن.

من دون تخطيط فكّر أن يذهب إلى سوق الجمعة وذهب، رأى الناس يتدافعون وشاهد بين الأشياء القديمة فيلةً نحاسيةً وأخرى من خشب بني مدهون، ورأى ثعابين حيّة تدير رؤوسها في فضاء السوق، وأخرى محنّطة تفتقت جلودها وبان قطن أحشائها، كان ينظر إلى فرشة من المصابيح الملونة والساعات والملاعق

والقناني الغريبة الفارغة ويشعر حركة الناس من خلفه حينما شاهد الناظور في الركن المترب، تقدّم خطوات ثم إنحنى عليه وسمع البائع وهو يصيح.

خالجه شعور غريب وهو يرى العالم من الشرفة عبر عدستي الناظور، أدهشه أن بإمكانه التقاط أحاسيس الناس وهي ترتسم على وجوههم إذ يجلسون أو يتمشون أو يعبرون الشط في قوارب ترتفع مع الموج وتهبط، فكّر أن يحدّث ثامر في أولى رسائله الجوابيّة عن ذلك مثلما حدّثه من قبل عن أناس البصرة القديمة ليؤكد له إن العالم لن يكون، أبداً، نفسه، وإن الأشياء تبدو من مثل هذا الارتفاع صغيرة ضائعة.

إستند، منحنياً، إلى سياج الشرفة، مدّ يده وأفلت الناظور، رآه يتهاوى مثل طائر من معدن، تنفتح حمالته ويدور في الهواء قبل أن يسقط دونما صوت على الأرض.

النزول في الظلام

في حوالي العاشرة سمعت تصادم الأنابيب قبل أن تُلقى على بلاطات الممر ويتعالى رنينها، بعدها وضعت أشياء ثقيلة كان لها وقع مكتوم وأخرى خفيفة مجوفة، ثم سمعتهما يتحدثان من دون أن أميز كلامهما فقد بدا أشبه بغمغمة من يغطّ في نوم عميق، فتحت الباب ورأيته يقف بانتظار اللحظة التي يفتح فيها، قال:

. صباح الخير.

قلت:

. صباح الخير.

ثم أضفت بصوت وددت ألا يكون حاداً:

. أنتظرك منذ ساعتين.

إبتسم وهو يتحدث، معتذراً، عن أشياء لم أميزها لانشغالي بالدم النازل على أحد أسنانه الأمامية، فكّرت بأنه لايرى الدم لكن بإمكانه تذوقه، ثم رجعت قليلاً فدخل فارغ اليدين ولحقه العامل بخطوات سريعة.

جاء عصر أمس بعد أن اتصلت به لأخبره عن الماء، بدا صوته في الهاتف بعيداً ولم يقل غير كلمات قليله، خلع حذاءه البلاستك وجلس ماسحاً شعره بذراعي بلوزته الرمادية منسولة الحواف فوجدت من المناسب أن أسخّن الشاي، رفع صوته وهو يتحدّث عن المطر الذي ينثّ منذ الصباح، كان زجاج شبّاك المطبخ مغبشاً، مسحته بأصابعي محاولاً رؤية القطرات.. حدّثته من جديد، ونحن نشرب الشاي، عن الماء الذي ينزّ من تحت بلاطات المطبخ ويفيض داخل الشقة، أنصت كأنه يسمع حديثي للمرة الأولى ثم قال:

. لابد من التحويل فقد تآكلت الأنابيب المدفونة.

سكت موجهاً نظراته نحو جدار المطبخ ثم أضاف:

. ماذا تفعل لو إنفجر أحدها، ستسرّب الجدران الماء حتى تغرق الشقة.

سألته إن كان متأكداً فأجاب بأنها ليست أول حالة تصادفه وأكد أنه يحفظ أنابيب العمارة عن ظهر قلب.

تحدّث، بعد أن أكمل الشاي، عن الفتحة التي سيفتحها في جدار الحمّام ليتمكن من النزول، يحول الأنبوب الرئيس ومنه يمدّ الشبكة، إنه الحل الوحيد، قال، فلن يبقى لديك أي أنبوب مدفون. لم أسمع من قبل عن أحد سقط في منور العمارة، لكنني خشيت نزوله في ظلمة الكونكريت، يمدّ حبله الطويل ثم يغيب في الرطوبة العطنة، إتفقنا، وهو يلبس حذاءه، على أن يباشر العمل مبكراً لأنتهي من الأمر بلا تأخير، قال:

. يناسبك في الثامنة؟

قلت:

. مناسب.

وفي الباب رأيت القطرات تنزل في خطوط منحرفة ورأيت الدم ينزّ، سألته إن كان يستخدم الحبل عند النزول فأجاب:

. لاحاجة له.

في منتصف النهار، بعد أن انقطع الصوت، مددت رأسي من الفتحة محاولا رؤيته وقد ملأت العطونة أنفي، تحسست ارتباك العامل خلفي وهو يراني أندفع وقد سمعت الأنفاس تتصاعد في الظلمة والأقدام تحتك على الجدار، توقفت الحركة قليلاً ثم سمعته يدق على الأنابيب.

الباب الشرقي

مات صديقه، قبل حوالي الشهر، اتصل بلا تخطيط ببغداد ووجد نفسه ينشج حال سماعه الخبر، سافر بالقطار ليعيش يومين رماديين قضاهما بين باب المعظم وفندق ليالي طيبة في الميدان، إتكأ على الوسادة ومدّد ساقيه على اسفنج السرير في محاولة لنسيان ألم عظامه، أغمض عينيه تحت شعوره أن ظلاً يقاسمه الغرفة ثم فتحهما ملتفتاً إلى النافذة حيث كانت الستارة نصف مسحوبة، وأخذ ينظر، ليلته، إلى المبنى الخالي لوزارة الدفاع ويرى الشارع في الضوء الأصفر الخفيف وقد بلله مطر ليل كانون، كان يتصور صديقه يسير في شوارع بغداد بمعطفه الطويل كحلي الصوف، انتظر أن تقوده خطواته تحت نافذة الغرفة، ربما توقف قليلاً ليرفع رأسه وينظر إليه قبل أن يواصل سيره تحت المطر.

أغلق حنفية الماء وهو يحلق ذقنه صباحاً ليُنصت إلى منظفة الفندق تتحدث بصوت عالٍ كأنما تُعلن عن نفسها، فتح الحنفية وأكمل حلاقته، كان يفكر، خلال ذلك، بالوحشة التي يخلّفها غيابِ صديق، يتحسس ظلالها على ما حوله وينظر إلى وجهه، من دون أن يراه، وقد غيبه البخار من مرآة الحمام.

مضى مع حيدر إلى الباب الشرقي، كان حيدر قد أنهى معاملة السفر وتسلّم الجوار، وتحت فكرة أن ليس هنالك طقس شديد البرودة أو الحرارة بل هنالك ثياب مناسبة وأخرى غير مناسبة، ذهبا للبحث بين الألبسة الأجنبية المستعملة عن معطف يواجه به برد عمان الذي لم يكن بالنسبة لهما واقعاً، كان خبراً منقولاً عن تجارب آخرين من دون أن تغيب عن أعماقهما أطيافُ عواقيين قضوا، هناك، متجمدين. تحدثا، وتفحصا، خلال الجولة كأنما ليتناسيا وجه صديقهما، وجه صديقهما وقد استحال قناعاً معروضاً بين أكوام البضاعة على الأرصفة، أو معلّقاً يتأرجح بين الثياب، يواصل النظر في حركته، بعينين مجوفتين، نحوهما. توغلا بين الأجساد

المتزاحمة فازدادت دهشته لكل هذه الأشياء: معاطف، وقبعات، دمى وقمصان، ألبسة داخلية منشورة وجوارب مكورة، شراشف، وجوه وسائد، ستائر، مناديل، دكاكين عميقة شبه معتمة، وعربات خشب وبسطات تغصُّ بكل ما هو مستعمل وملبوس.

اشترى ربطتي عنق، مستعملتين أيضاً، بسعر زهيد، واحدة رصاصية ذات خطوط رشيقة حنيّة، خضراء، وأخرى زرقاء بمربعات حمر فارغة ومفتوحة، اختارهما من بين أكوام وقت غداء الباعة، قال لحيدر إنهما يناسبان بمزيج ألوانهما بدلاته الحكومية جميعها، وكانت صحون الطعام قد أُخذت تترك خاليةً أمام الدكاكين، في عودته إلى البصرة كان يرتدي الربطة الأولى على الجاكيت الرصاصي والبنطلون الأسود، البدلة التي تمنحه شعوراً رياضياً نادراً يُخفي تحته ألم عظام ساقيه ومذاق كبسولات البيبلكس وهو يتصاعد مرّاً إلى بلعومه كلما تجشأ ويملأ فمه بريح نتنة، انتبهت زوجته للربطة فحدّثها عن جولته في الباب الشرقي، وكان قناع صديقه يواصل تأرجحه في عتمة الدكاكين، فتحت فمها مستغربة وهي تسأل: ملابس داخلية أيضاً؟ فقال: كل شيء، حتى خفت أن أنظر إلى البالات العظيمة المركونة، كنت أخشى أن تمتد منها يدٌ عليلةٌ أو ساق فأتشاغل بالنظر إلى حيدر يخلع معطفا ويرتدي آخر، ينظر إلى صورته في مرايا الدكاكين ثم يستدير ليسألني كيف يبدو، أرى السن الجديدة في مقدمة فكّه العلوي وأسأله متى سيركّب الثانية، يضحك وهو يقول أسألك عن المعطف فتسألني عن السن، عندها قلت: ربما وجدنا، إذا أطلنا البحث، عقداً من أسنان طبيعية، أو فكّاً صناعياً مستعملا. أخذ ينظر إلى المرآة، بجد هذه المرّة، فتح فمه ومسَّ بطرف لسانه السن ثم أغلق فمه وخلع المعطف، اقتربتُ منه ورأيتني داخل المرآة أعتذر بصوت واطئ، قلت إنني مندهش فحسب لكل هذه الأشياء، وربما أذهلتني رائحة الثياب قليلاً، قال لا تهتم، يبدو أن الرائحة لعبت بعقلي كذلك.

غسل الوجه

استغرب لوجوده في علوة المواد الإنشائية، وفكر بأنه توقف فيها عن طريق الخطأ، ربما أطفأ محرك سيارته ونزل للاستراحة والتقاط النفس. وجد نفسه وقد خلع نعاله الجلد ثم جلس في الظل، متكئاً على باب السيارة، بين أكوام الكاشي وأنابيب البلاستيك، وقطع البلاط الكبيرة، وأكياس الاسمنت، كان يبدو العمل متوقفاً فلا منازل تُبنى ولا مدارس ولا مستشفيات ولا مراكز صحية حتى، كأن الحياة اكتفت بما شُيد من قبل ولم تعد بحاجة للمزيد، لكن بعضاً من سائقي السيارات القليلة دعوه للانتظار، فالعمل مهما بطؤ لن يتوقف وهاهي تلال المواد، كما أكدوا، ترتفع على الرغم من كل شيء.

* * *

أغمض عينيه في لحظة نوم خاطف، ثم فتحهما فرأى السيارات أمامه، كأنها والغيمة الترابية تحيط بها قد هبطت من السماء، انتظر ركابها قليلا ثم فُتحت الأبواب ونزلوا جميعاً، بعضهم بقي واقفاً قرب السيارات فيما تحرك البعض الآخر تجاه مكاتب التجهيز، ملابسهم العسكرية زيتونية اللون الخالية من الرتب، وأحذيتهم الحمراء بجلودها اللامعة اختصرت الكثير من القول، كما اختصرته من قبل سياراتهم الحديثة غير المرقّمة، ليغدو كلامهم محض إشارات بأصابع نظيفة ناعمة، أما ألفاظهم فمعظمها للأعداد والمقاييس والأوقات، كأنها تردم، على قلّتها، فراغاً لا مرئيا في مشهد حضورهم.

* * *

سادت العلوة فور مغادرتهم حركة غير معهودة: تراكض عمال التحميل، وغيّرت السيارات أماكنها، وتصاعد صياح التجار فامتلأت أحواض السيارات سريعا وجاءت سيارات لم يرها من قبل لتُملأ هي الأخرى قبل أن تتحرك قافلة المواد.

* * *

من مكمنه على كتف البوابة أشار احد الحراس للقافلة بالتوقف فتوقفت ونزل تاجران بدشداشتيهما المبللتين بالعرق، اقتربا من الحارس وحدّثاه، ثم دخلا من ممر جانبي لتُفتح بعد دقائق بوابة الحديد الشاهقة وتندفع القافلة بطيئةً إلى الداخل، إنها المرة الأولى التي يخطو فيها خلف احد جدران الكونكريت، كان يراها من بعيد، من أعلى الجسر أو عبر الضِفة، تلوح له المساحات الفسيحة المزروعة خلفها والبنايات الفخمة المتفرقة قبل أن يُشيح بنظره إلى الجهة المقابلة، اعتاد أن يراقب الركاب كلما استقل أحد باصات النقل العام، حيث تبدأ أحاديثهم بالخفوت مع اللحظة التي يصعد الباص فيها على الجسر، يتأمل ملامحهم وهي تغادر حيويتها ونظراتهم وهي تتعلق بنقطة ما في آخر الجسر... مع تقدم الباص يعاودون أحاديثهم بصوت خفيض، ومع انفلاته من الجسر تكون الأحاديث قد عادت لضجتها والوجوه قد استعادت حيويتها.

* * *

أفلتت زوجته الصحن وهي تسمعه يقول، بلا مقدمات، بأنه سيبيع السيارة، اعتادت في لحظات المفاجأة السيئة أن تضرب على خديها، تعتصر وجنتيها بأطراف أصابعها كأنها تقطع شيئاً منهما، لكن يديها كانتا منشغلتين حينما دخل ليرمي مفاتيح السيارة على المنضدة ثم يرتمي على الكرسي، يداه مسدلتان ورجلاه ممددتان ورأسه مائل على كتفه، ضغطت يداها على الصحن وهي تنظر نحوه ومع جملته سقط الصحن متشظياً على أرض المطبخ، فزّ محدقاً بشظايا الأزهار المرسومة على الحافة البيضاء، وكرر، من دون أن يرفع رأسه، بأنه سيبيع السيارة فقد رآهم خمسة أو ستة من الحراس وقد التفّوا على أحد السائقين بعد أن اندفع إلى

الخلف ليصدم . من دون أن يحسب . جانباً من سياج حجري منقوش، فتح الباب محاولاً النزول ولم يكن قد تبين ما حدث، لكن مشهد الحراس وهم يركضون كان كافياً ليُشعره بعنف ما ينتظره، أكمل أحدهم فتح الباب ومن دون كلمة سحبه من ياقته، علقت إحدى رجليه بالمقود وامتدت يداه تتخبطان وقد انقلب جسده إلى الأسفل، وهي اللحظة التي بدأ فيها الحراس بالضرب... اختفى التجار، وتراجع السائقون، واختبأ عمال التحميل في أحواض الشاحنات، كانوا يتقّون المشهد بمحاولة البقاء بعيداً، خارج اللحظة، لكن صراخ السائق كان يحيط بهم، يقيدهم، ينزل إلى عظامهم، انصتوا له حتى بدأ يخفت وقد انهارت قوة الرجل فسقط على رأسه... قال بأنهم لم يكفوا فقد أخذوا يضربونه بمقدمات أحذيتهم وقد تمدد فاتحاً فمه.

كانت زوجته واقفةً ما تزال وقد أحست بالبرودة في أطراف أصابعها، اقتربت منه لتتأكد من سلامة ملامحه وسمعته يكرر رغبته في بيع السيارة، لكنه لم يبعها فليس من السهل أن يتخلى عن سيارته وقد حارت العائلة قبل الحصول عليها كما أنهم ضحوا بالكثير من أشياء المنزل ليهيئوا متطلبات إصلاحها في كل مرة تتعطل فيها.

* * *

شيء ما يعيد الواقعة إلى ذهنه كلما رأى السيارة فيضيق صدره ويشعر بألم في معدته، تركها أمام باب المنزل محاولاً تجاهلها، وقد عمل لزمن غير قصير موظف استقبال في فندق (شهرزور) في شارع الجمهورية بعد أيام طويلة قضاها متجولاً في شوارع بغداد، عابراً على مهل جسورها. كان يشرب الشاي قريباً من مبنى وزارة الدفاع القديم حينما مر ريبوار، أحد أصدقائه في الفوج الثالث، سريعاً كعادته، أنزل استكان الشاي ونادى:

– مسافر، يا مسافر.

كان أول شيء يفعله كلما تعرف على صديق كردي غريب الاسم أن يسأله عن معنى اسمه، وكان الكثيرون يحارون قبل أن يجيبوا إلا ريبوار فقد كان واثقاً من

أن أباه لم يختر اسمه فحسب، بل اختار باسمه مصيره، أجاب وقد تلامعت عيناه الجميلتان:

- مسافر،ريبوار يعني مسافر.

سكت قليلاً كأنه يراجع أجابته ثم أضاف:

- إلى حد ما، فهو يعني أيضا الجوال، الهائم، وها أنا أهيم من أقصى الشمال إلى شرق البصرة.

التفت وسط زحام الصباح في باب المعظم وهو يقول:

- عرفتك، لا أحد يناديني بالمسافر غيرك!

شربا شايهما وهما يتحدثان عن أيام الفوج القديمة ثم سأله عن عمله، أجاب محاولاً القفز على السيارة المتروكة ووجه السائق وهو يشهق مفتوح الفم:

- لا شيء.

قاده ريبوار للعمل مع أصدقائه في الفندق مشترطاً أن يكف عن عادته القديمة في بلبلة الناس بالسؤال عن معاني أسمائهم، تركه في صالة الاستقبال داخل ركن الخشب، أمامه سجلات الحجز والمغادرة وخلفه لوحة المفاتيح بخاناتها المربعة وأرقامها المقشرة الطلاء، وغادر مواصلا تجواله.

* * *

بين الغرف المملوءة والشاغرة والنزلاء القادمين والمغادرين تنسَّل صوف أيامه، كان يحرص في ساعات الضحى بعد أن يمضي النزلاء إلى أعمالهم، أن يجّلس في صالة الاستقبال بعيداً عن السجلات والمفاتيح منشغلاً بمرأى الناس وهم يمرون من أمام الفندق، وفي مناوباته الليلية بعد أن يغادر العمال وتنطفئ أصوات النزلاء يعاود الجلوس متصوراً الوجوه نفسها تمر في شارع الليل كما مرت في شارع النهار. كان يحس في الملامح المترقبة تعبيراً عن مخاوف مكتومة، كأن الناسِ تسمع دمدمة الصخرة وهي تُدفع إلى حافة أيامهم فيندفعون محاذرين انفلاتها، ينجزون مشاويرهم من دون أن يرفعوا رؤوسهم ليتبينوا مكانها، تماما كما كانوا يحاذرون الالتفات كلما صعد الباص بهم أعلى الجسر. مع اقتراب الدمدمة تبين الجميع بأنها ليست صخرة

على حافة، بل جبال من الحديد تتجول، وقد أطلّت من قمراتها رؤوس الجنود الأميركيين بخوذهم المقمشة وباللاقطات القريبة من أفواههم، في محاولة للتأكد من حقيقة العالم من حولهم.

التفت، من مكانه في صالة الاستقبال، ورأى حرّاس البوابات يركضون في مشاهد المتابعات الإخبارية، أيديهم منشغلة بخلع بزاتهم العسكرية، وأبواب الحديد مشرعة خلفهم، مع كل خطوة من خطواتهم يتراءى له السائق وهو يفتح فمه والأحذية الثقيلة وهي تواصل مهمتها.

* * *

في الصباح سحبت زوجته ستارة نافذة المطبخ ورأته منشغلاً بتنظيف السيارة، شيء ما دعاه لترك القلم على منضدة الاستقبال وغلق السجلات، رتّبها واحداً فوق الآخر وعلّق مفاتيح الغرف في خاناتها قبل مغادرة الفندق. في (سوق الشورجة) رأى الشاحنات تواصل تفريغ حمولتها من قناني البيبسي كولا، استغرب من صفّها الطويل وضحك لفكرة أن الناس بحاجة لملايين من قناني البيبسي لِهضم ما حدث، ومن دون أن يدعوه احد أوقف سيارته خلف إحدى الشاحنات فحملت وأُفرغت أكثر من أربع مرات في نهار واحد.

* * *

كانت الأحداث تتلاحق على نحو لم يعتده من قبل حتى بدأت المشاهد تتسارع والحياة تضيق، فتبدو الشوارع أقصر من ذي قبل، والساحات أقل سعة، والأنهار أقل امتداداً، أخذت حواجز الكونكريت تُعيد تفصيل المدينة فتبدو مثل ثياب ضيقة يصعب على القدم أن تخطو فيها خطواتها وعلى اليد أن تمتد، كان الجسد يعيش محنته الجديدة، وربما كانت محنة الجسد هي السبب الذي دفع به للتحول الأخير فقد بدأ يتجه كل صباح لضواحي المدينة مخترقاً ما تبقى من مناطقها الزراعية.

* * *

توقف في (سبع أبكار) ليصعد أحد الفلاحين مع ابنه وقد اصطحبا ماكنة سقي متوسطة الحجم مزيتة الأنابيب، ساعدهم في رفعها إلى حوض السيارة، صعد الصبي إلى جانبها وجلس الأب في المقدمة متحدثاً عن ضيق المدينة واختناق شوارعها، سكت قليلا ثم عاد يتحدث عن الأنهار الشحيحة وعن الجثث التي تُرمى في البساتين، أنصت له وهو ينظر عبر مرآة السيارة إلى الصبي الذي بدأ يغفو وقد سقط رأسه على الماكنة. على أحد الشوارع الترابية أنزلوا الماكنة، وقبل أن يتحرك سمع الرجل يصيح بابنه ألا ينام في أحواض السيارات مرة أخرى.

كان سعيداً بالسير بين البساتين، يتوقف بين وقت وآخر لينزل مستنشقا هواءها المشبع برائحة الثمار، فكّر أن يغسل وجهه حينما رأى جثة مرميةً على طين الساقية، قدماها حافيتان، يداها وأعلى رأسها في الماء كأنها نزلت لتشرب، حينما أمسك قدميها تأكد بأنه لم يمر على موت صاحبها وقت طويل، ثبّت رجليه وسحبها إلى كتف الشارع الترابي، ملأ قنينةً بلاستيكيةً بالماء وصبّه على وجهها، رأى ثقوب الإطلاقات عميقةً ومحددة، فتح باب الحوض ثم رفعها بجهد، كانت قد بدأت تتجمد، ليتركها مقلوبةً على الحديد المضلّع، مرة أخرى لفحته رائحة البساتين وقد عاد ليغسل يديه بماء الساقية.

علـي الأحمر

إنه علي، علي الأحمر، الذي لم يكن شيوعياً ذات يوم لكن لقب الأحمر ظل لصيقاً به منذ الصف الثاني المتوسط الذي كان خاتمة سيرته التعليمية، كأنه دخل المتوسطة ليكتسب اللقب لا ليتعلم أن يفك الخط، كان في الصف أكثر من اسم علي، علي صادق، وعلي سالم حلو، وعلي عبد الرحمن، الأول غادر البصرة مع عائلته إلى (بيجي) في الشمال صحبة أبيه الذي كان يعمل في محطة قطار المعقل، وعلي سالم حلو غاب في بداية الثمانينيات مع إحدى جولات رجال الأمن العاصفة على دور عمال الميناء، أما علي عبد الرحمن فقد واصل السير حتى دخل الكلية العسكرية ليُقتل برتبة ملازم أول مع انسحاب وحدته من الكويت.

هل كانوا أربعة طلاب يحملون اسم علي؟ ربما، لكن المؤكد أن ثلاثة منهم تبخروا على امتداد عشرين عاماً وبقي الأحمر وحده يذكّرنا بمدرس الرياضة في متوسطة المعقل وهو يميز بينهم بالألوان : الأول بسمرته الدكناء، والثاني بصفرته المرضية، والثالث بزرقة شفتيه، والأخير بحمرة وجهه.. نُسيت بقيةُ الألوان بغياب أصحابها، وبقي الأحمر ملازماً لعلي ابن نائب العريف في سلك الشرطة جاسم سلمان الذي ما انفك يتفاخر بأنه سحق ست نساء لم تبق منهن معه غير وسفه، أم علي، ببدانتها وقصرها ولون بشرتها الذي ينقط منه الدم. كان يحلو له أن يتحدث عن نسائه واحدة تلو الأخرى ليصل إليها فتهيمن على حديثه حكاية واحدة لا يمل روايتها، حكايةَ وسفه مع اللص التي سمعتُها منه ثلاث مرات، مرتين في عيدين متتابعين وثالثةً في أحد الأعراس، كما سمعتها من وسفه في إحدى زياراتها لمنزلنا، لم يكن أحد من السامعين يعترض على الحكاية وهي تُعاد على مسامعهم، كانوا يستمتعون بحديث المرأة الحامل وقد دخل بيتها لص عاثر الحظ في ليلة صيف حارة، كان زوجها خلالها يؤدي واجبه خارج المنزل، لم أكن أُحب النوم على السطح

في الليلةِ التي لا يبات فيها جاسم في البيتِ، قالت، كنت أتقلّب مثل سمكة مسمومة تحت حرّ الغرفة وألم الحمل، قطعت النفس منذ اللحظة التي سمعت فيها صرير درجات السلم، نهضتُ متكئةً على يدي ثم طللتُ ورأيتُ شبحه ينزل متأنياً إلى عتمة المنزل، لم أفكر لحظتها بشيء بقدر ما فكرت بقنينة العرق التي يتركها جاسم مملوءة بالماء على حافة النافذة المفتوحة لتبرد، أمسكت بعنقها وانتظرت حتى وصل أمام الغرفة، فصرخت صرخةً سمعها سابع جار وهويت بها على هامته فانفجر دمه وشعرت برطوبته تبلل وجهي ورقبتي، كنت أواصل الصراخ وأنا أرى عينيه تبيضّان ورأسه ينفتح مثل ثمرة الرقي وهو يستدير من هول المفاجأة وعنف الضربة ليواجهني. لم أكن أتصور أن بإمكان القنينة أن تهشّم رأسه، لكنها ضربة خائف كما قال جاسم، ضُربتان قاتِلتانِ: ضربة الخائف وضربة المجنون، وكنت ليلتها قد جننتُ من الخوف ليُغمى عليّ فور سقوطه، لم أتحمل شهقته وهو يعبُّ الهواء كما لم أتحمل منظر رأسه المفلوق وعينيه المبيّضتين فدارت بي الدنيا ووقعت مغشياً عليّ. كان علي يستغرق في الضحك كلما تذكرنا الحكاية مؤكداً أنه ما زال يسمع هشيم القنينة، منذ كان في بطن أمه، وهي تهوي على رأس الرجل. وعندما توفي والده منتصف التسعينيات أخذ يميل على أكتاف أصدقائه، في مجلس العزاء، ليهمس لهم بأنهم لن يسمعوا أباه يتحدث عن اللص مرة أخرى.

نعم، إنه علي، لقد تأكدت منه فور أن رفع الرجل الغطاء عن رأسه وسألني، على الرغم من أن الرصاص أكل جبهته ونصف وجهه لكنني لا يمكن أن أخطئه بعينه المفتوحة، وأنفه القصير، وشفتيه اللتين ظلتا محتفظتين بشبح ابتسامتهما تحت شاربه الخفيف وقد غيّب الدم الجاف شعراته البيض.

لم يكن أبوه وحده من سكت عن الحكاية، فقد غابت وسفه عن الأذهان بابتعاد علي عن المعقل، نراها بين وقت وآخر تجر خطواتها بين منازلنا أو نسمعها تتحدث عن ابنها الذي غادرها بعد وفاة أبيه ليعمل سائقاً في مقالع برّ الزبير، كان يعود في أوقات متباعدة، في ليل أو نهار، نسمع جلبة شاحنته الشفر القديمة ونراه وقد عفّر التراب حاجبيه وشاربه ولفَّ على رأسه شماغاً منقّطاً حائل اللون، يبدو كأنه كبر عشرين عاماً، وعلى عادة الشيوخ كان يفرش مع الغروب بساطاً أمام منزلهم وقد

استعاد بعضاً من صورته القديمة بعد أن ألقى بالشماغ واستحم وأخذ ما يكفي من نوم الظهيرة، لكن أحاديثه تعود به لجويبدة والبطين والطوبة، لمساحات فسيحة من الرمل، فيتحدث عن حفر هائلة تتوسع باستمرار حتى يظن المرء، كما يقول، بأن الأرض ستنتهي إلى مثل هذه الكهوف. أفكر لحظتها إن كان هو علي الأحمر حقا فأنتبه ليديه المتيبستين وهما تسكبان الشاي ويزيد حديثه عن العمال الذين يغيبون في الأجواف الرملية مع انهيار الحفر من ارتباكي.

وضع كوب الشاي أمامي ثم تساءل:

- هل تصدق بأن الأرض تشتعل تحت أقدام العمال؟
- أية أرض؟

سألت غير مدرك لما قال، فأجاب:

- إنها أرض جويبدة، تتقد نيرانها عيوناً متفرقة لتصبح مع استمرار الحفر نهرا من اللهب.
- والعمال؟
- يتقافزون إلى الحواف المرتفعة وقد اكتوت أقدامهم.
- وهل يعودون إلى العمل مرةً أخرى؟
- فور أن تُطفأ النيران ويبرد الرمل.
- أية حياة هذه؟!

نظر إلي متبسماً، لأول مرة أرى شبح ابتسامة على شفتيه منذ زمن تصورته طويلاً، ثم أجاب:

- إنها حياة الرمال.

وهي الحياة التي تصورت علي يغور في حفرها كلما طال غيابه.

يخيفني أن يتصل بي رقم غريب، ترددت قبل أن أرد وأنا أرى الرقم على الهاتف، وقد تصاعد خوفي حينما رددت فسألني رجل ليتأكد من اسمي الثلاثي، خوف قديم ارتجفتْ له يدي وتقطّع صوتي وأنا أؤكد بأنني صاحب الاسم ثم سمعته يحدثني عن الطب العدلي، وعلي جاسم، وجسر الزبير، ولم أفهم ما يربط بين حديثه ورقم هاتفي فرجوته أن يعيد ما قال. في الطب العدلي سلموني أشياءه قبل أن أرى

جثته، كانت بطاقة الأحوال الشخصية وإجازة السياقة وبعض من قصاصات الورق إضافة إلى حافظة نقود جلدية صغيرة موضوعة في كيس نايلون شفاف مربوط بشريط لاصق يحمل رقماً مطبوعا.

حملت الكيس من فوق المنضدة، حيث وضعه الرجل، وقرأت اسمي ورقم هاتفي كما دونتهما له على إحدى القصاصات في زيارته الأخيرة.

قال الرجل:

- من حسن الحظ أنه يحمل هذه الأشياء، لأننا غالباً ما نتورط بجثث فارغة الجيوب.

تأملت بطاقته وحاولت تقدير العمر الذي التقط فيه صورته.

قال الرجل:

- تفضل.

فتبعته في ممر طويل تقشر طلاء جدرانه، وقفنا في آخره أمام باب حديد، أخرج مفتاحاً من جيب بنطلونه وفتحه ثم دفعه بكتفه ودخل، بقيت أرقّب الباب وهو يتحرك حتى استقر ثم سمعته ينادي، وفي القاعة رأيت صفاً من الأسرة الطبية مدَّت فوق كل منها جثة مغطاة بشرشف أو بطانية، بعضها مكشوفة الأرجل، شاهدت من بينها أكثر من جثة حافية، انتبهت للرجل وقد توجه لإحداها، سحب الشرشف وانتظر حتى اقتربت ليسألني:

- هو؟

رأيت جبهته وإحدى عينيه وقد نخرهما الرصاص، كانت عينه الأخرى مفتوحة تواصل النظر، حدقتها تلمع في ضوء القاعة.

قلت:

- هو

فأعاد الشرشف على الرأس وعدنا عبر الممر الطويل.

إلق ما في فمك

(1)

لا يتذكر على نحو دقيق متى فكّر بمواجهة خوفه، لكنه يذكر أن شيئاً ما استفزه ودفعه لمعايشته والإنّصات لصوته الخفيض.. ربما كانت حكاية سمعها ذات يوم، أو جملة قالها أحد مدرسيه، كان ينصت مع طلبة الثاني (ب)، هكذا يتصور الأمر، حينما سمع أحدهم يقول: نصف الانتصار على الخوف مواجهة ما نخاف منه، يستعيد الجملة متخيلاً نبرتها الواضحة وأداءها الفصيح وقد قالها الأستاذ صادق، مدرّس اللغة العربية في متوسطة الرشيد خلال أحد دروس الإنشاء، قبل أن يُستدعى من الصف من قبل رجال غرباء كان الطلاب قد رأوهم يحومون حول سياج المدرسة، وتغيب أخباره ولا يعد أي من دروس العربية يخلّف أثرا في أرواح الطلاب.. لم تكن طريقته في إلقاء القصائد القديمة أو أسلوبه في دروس النحو ما يشدّان الطلاب ويقربانهم إليه، كان شيء ما واثق وعميق يملأ روحه ويتجسد في فضاء الصف عبر صوته وهو يشدّد على بعض الكلمات كأنه يتذوقها، وقامته الممتلئة، وحركات يديه، وينمي في نفوس الطلاب شيئاً لم يكن ليبين لكنه يُحس عبر رغبة الكثير منهم في أن يكونوا، لحظة دخوله إلى الصف، مدرسي لغة عربية.

(2)

مع دخوله الجيش سيحاول استعادة مواجهته مع الكثير من وقائع حياته خصوصاً في ليالي السواتر، حيث تبدو المسافة بينه وبين الموت واضحة تنفتح،

على الرغم من ضيقها، لكثير من الوجوه التي صادفته وهي تطلّ من سماء الليل مواصلة أحاديثها التي لم تنقطع يوماً، لا يستطيع الجزم، عندها، إن كانت الجملة للأستاذ صادق، أو للأستاذ محمود الأمين، مدرّس التاريخ في إعدادية المعقل، قبل أن يُستدعى هو الآخر ويتحدّث الطلبة، وقد اعتادوا غياب أساتذتهم، عن المدرس الذي يحلم بإعادة كتابة تاريخ الثورة الفرنسية، حتى تصوروه لكثرة حديثه عنها أحد أصدقاء نابليون بونابرت المقربين وهو يستعيد مع كل مناسبة حكايته من أول حياته في أجاكسيو إلى آخر خطوة فيها على حواف سانت هيلانة.

سواء كان ذلك ناتجاً عن حكاية سمعها، أو جملة قالها أحد أساتذته وسكنت أعماقه فقد قرر أن يحرز نصف انتصاره ويقف وجهاً لوجه أمام ما يخاف منه.. تعلّقت عيناه، وقتها، بشقوق الجدران، والزوايا المعتمة، وانكسارات السقوف، كان يبحث ليل نهار حالفا ألا يقشعر جلده حال رؤيته يدبّ على الجدار، وألا يدفعه المقت والنفور للشعور بالمرارة تتصاعد إلى بلعومه وهو يحدّق إليه برأسه المدبب الصغير وجلده الترابي ملاعباً ذيله ذا الحلقات، كانت الشقوق قد ملكت عليه تفكيره وبدأ يتصورها على جدران البيوت، وبين الأسيجة، وفي الصف خلف السبورة، وفي قاعة مختبر العلوم الطويلة شبه المعتمة، منتظراً اللحظة التي يطلّ فيها متحركا حركته البطيئة، لكنه لم يخرج أبداً، ظل قابعاً في ظلام شقوقه كمن أدرك بغريزة السحالي رغبة المواجهة وفضل عليها سباته الطويل.

(3)

هل يتذكر كيف أخذت القصة منحى آخر حينما صعبت المواجهة فاستعاض عنه بنسخة بلاستيكية، وضعها أول الأمر في جيب بنطلونه وحاول نسيانها لكنها كانت أشد حضوراً في ذهنه من أي شيء آخر، كان ينتظر أن تدب الحياة بكتلتها اللدنة فتطلّ بعينيها من فتحة الجيب بعد أن يحس استدارتها في القاع القماشي ويؤلمه وخز أظافرها على جلده وهي تصعد إلى أعلى، يعمل، عندها، على أن يكون وحده ليضرب على جيبه بقوة كأنما يميت قطعة البلاستك، وبعد أن يطمئن لسكونها

يدخل يده ويمرر أصابعه على جسدها بحراشفه الدقيقة، يفتح فمها ويضغط رأسها الصغير، أو يعصر ذيلها ليتأكد أن ليس بمقدورها أن تفلت أو تنفخ أو تستدير، لم يكن في ذلك كله يلاعبها، كان يحاول أن يتغلب على خوفه ويجهد من أجل أن تعتاد أصابعه ملمسها..ثم أخذ يدسها في جيب قميصه خلف هويته المدرسية، حتى إذا ما سحب بعض أوراقه النقدية تعمد إسقاطها كما لو كانت جسداً حياً اختبأ في جيبه، يصرخ، لحظتها، ويضرب بحذائه مرة، مرتين، ثم يضغط عليها، يتعمد أن يغطيها تماماً قبل أن يرفع عينيه متطلعاً إلى من يقف حوله لعلّه يصطاد لحظة خوف تمسح ملامحه.. لم يكن ذلك الشعور ابناً للخوف وحده، يُحسه قديماً، ولد معه ونما سنة بعد أخرى، كبر مع الشقوق العميقة المعتمة، ونظر بعينيه الخرزيتين مراقبا حياته بتفاصيلها الخفية منها والمعلنة، فتأكد مع تصاعد خوفه، إنه أقرب إليه مما يُحب، وأدنى إلى طبيعته.. أحسه خفياً بقدر ما هو مرئي، قريباً بقدر ما هو بعيد، واستشعر حركة أطرافه تحت الثياب، من دون أن يدري كيف تسلل إلى الطيات المرتبة وانتظر ساكناً ليحتك الجلد بالجلد، وتخمش أظافره الدقيقة المعقوفة مخلفة علاماتها الواخزة، فيستعيد لحظة وقوع يده عليه .. كان ذات يوم منشغلاً برفع أكوام من أوراق منسية في ركن دولاب فأحس ما لم تعتد أصابعه تحدبه، لم يفكر أن يده يمكن أن تمسكه ولو بطريق الخطأ، تلامسه كأنما عن قصد وتتفحص كتلته الحية، فتترسب في شعوره تلك اللحظة قبل أن ينزلق سريعاً وقد تحسس هو الآخر ثقل الأصابع، وربما أفزعته طراوتها ورائحة جلدها، لكنه ظل نابتاً على باطن اليد التي سارع إلى غسلها أكثر من مرة.. أحسه بلاستيكياً، ليناً، لدناً، سريع الانزلاق، يخلّف على الجلد، مع كل حركة من أطرافه الدقيقة، ندبةً لا تمحى، وكلما احتك بطنه بيده ترك أثراً عميقاً مثل حرق قديم، فتصور جلده عندئذ مبقعاً، خشي لمس مواضعه الشائهة وملأه شيئاً فشيئاً شعور بأنه ليس جلده.. فكم مرة سار عليه، في الحلم أو الحقيقة، وكم مرة فتح فمه الأحمر الدموي لينفخ، وكم تلاعب ذيله، تلوى، وانقلب، واستدار، قبل أن ينتفض انتفاضته الأخيرة ويسكن كما لو كان كائناً كاملاً لا مجرد ذيل مقطوع يموت.

(4)

يضع قطعة البلاستيك على الوسادة قرب رأسه وينام لكي يراها تحدّق نحوه ما أن يفتح عينيه، ثم أخذ يدسها في فمه، وقد بدأت اللعبة تستحوذ عليه، كلما وجد نفسه غائراً في الزحام، يتدافع متطلعاً إلى الوجوه من حوله وهو يحكّ بلسانه على بطنها المحرشف ويتساءل بلا صوت: من رأى منكم ولداً يُخبيء سحلية في فمه؟ ثم يميل تجاه أحدهم، صبي أو فتاة، رجل أو امرأة، لسبب ما يختاره دون سواه، ينظر له وبعد أن يتأكد من إثارة اهتمامه يصرخ ماداً قطعة البلاستك وقد زاد اللعاب من دكنة جسدها واحمرار لسانها وبريق عينيها.. كانت تلك واحدة من سعاداته النادرة أن يرى المفاجأة والذهول يرسمان الرعب على الوجوه، لكنه انقطع عن مواصلة اللعبة وانطفأت سعادته بها، لا بسبب الرعب وقد صبغ الكثير من الوجوه بعد أن تركها تتلوى في ذهولها واندس في الزحام، بل لحديث سمعه في أحد الباصات، حيث يفتح الناس، عادة، صناديق حياتهم ويدعون الآخرين للفرجة على محتوياتها: أمراض ونزاعات، مخاوف ورغبات، وساوس وذكريات، تتصاعد مع اهتزاز الباصات من الصناديق غير المحكمة في الغالب إلى أفواه الركاب فتتشعب وتختلط، تقلّب مواجع وتنكأ جروحا.. كان الحديث متصلاً لحظة صعوده وفي فمه قطعة البلاستيك، ما أن اندفع الباص في شوارع البصرة حتى وجد نفسه مشدوداً مثل بقية الركاب للتفاصيل وهي تعلو في الفضاء الساخن مختلطة مع بخار البنزين ودخان السكائر وروائح الأجساد البشرية، كأنما رغب الراكب وهو يفتح صندوقه أن يحدّث الجميع، يهز نفوسهم، ويزرع في قلوبهم موعظته، كان يتحدّث عن إحدى جاراته المسنّات وقد اختار أحد ابنيها الهجرة عبر الشمال إلى تركيا، ومنها إلى أرض الله الواسعة، قبل أن يغيب الآخر في أحد هجومات شرق البصرة ولم يعرف إن كان قد قُتل أو أُسر فقد انشقت الأرض وابتلعته .. بقيت العجوز وحدها سنة أو سنتين حتى انطفأت حواسها وأخذت تصطدم بجدران المنزل كلما مشت لحاجة من حاجاتها، فانقطعت حركتها ولم تعد تحدّث أياً من زائراتها، كانت تطيل التحديق أمامها، وفي الليل

يسمعها الجيران تحدّث ابنيها، تعاتبهما، وتعنفهما ثم تحنو عليهما، وقبل الفجر تنيمهما على رجليها العظميتين وتغفو ..

إنخفض صوت الرجل بعد أن تأكد من اهتمام الركاب بحكايته، من التفت إليه منهم ومن لم يلتفت، ثم صمت، بقيت المشاهد تواصل حركتها خارج الباص، بزحمة أناسها واختناق شوارعها بانتظار حكاية العجوز وهي تصطدم، على الرغم من انقطاع الحديث، بجدرانِ المنزل، تنحنح الرجل وواصل حكايته: انقطع أنين العجوز لأكثر من ليلة ولم يعد يسمع شيء من حديثها أو عتابها أو تعنيفها، طرقت إحدى جاراتها الباب ونادت بصوت سمعه الجيران لكنها لم تجد في نفسها الجرأة لدخول المنزل، بعد أقل من يوم واحد فاحت الرائحة .. سكت قليلاً كمن يتذكر شيئاً، ثم قال : لم يكن الباب مقفلاً، دفعته ودخلت، كانت المرأة متيبسة وقد أُكل أنفها وعيناها وأذناها، لم أجرؤ على لمسها، أنا الذي لم أخش الموت يوماً، خفت أن تكون السحالي ما زال تعبث بجثتها.

(5)

ما أن سمع خاتمة الحديث حتى انفجرت المرارة في فمه وغام الزجاج أمام عينيه فغابت مشاهد المدينة وتبدد زحام أناسها، كان يفكر، في لحظة خاطفة، بالوجوه البشرية وهي تتداخل قبل أن تمحى وتزول.

أصبحت قطعة البلاستيكي فمه فصاً لاذع الطعم يذوب نازلاً إلى بلعومه، مع اندفاع الباص أخذ يتقيأ متصوراً حيوانه وقد نهش الكثير من أنوف العجائز والتهم عيونهن.

توقف الباص وانقطعت أحاديث الركاب وقد اجتمعوا من حوله فأصبح الجو خانقاً لا يطاق، حاول فتح عينيه فرأى الأحذية المتربة ونعال الجلد، تمتد منها الأصابع الغليظة، لم ير، وهو يتخفف من طعم المرارة، الشفقة التي ارتسمت على الوجوه، ولم تكن العيون المتطلعة قد انتبهت، بالمقابل، للقطعة الحيوانية وقد أغرقها القيء.

بطاقة بريد لأموات المعقل

أذهلني أن أرى العائلة، بعد أن بددها الزمان، تجتمع في بطاقة بريد: الأب يخفض رأسه، ويمدّ يداً للصبي الذي أخذ ينظر، مفتوح الفم، وهو يميل على يد أمه التي لم تكن منشغلةً، كما توحي نظرتها، بغير ما ستبدو عليه، كأنها تثأر بابتسامتها وفتوة خصلتها النازلة من شيء ما بعيد وغير مرئي.

إنها اللحظة التي ستبقى ماثلة في ذاكرتي وأنا أستعيد حياة ساكني ميناء المعقل، تتسع العوائل ويشبّ أبناؤها وتظل منازل الميناء كما هي بطراز بنائها وضيق غرفها، لا يفصل بين منزل وآخر غير جدار بعرض طابوقة واحدة، فتبدو مثل مخازن كبيرة تتقاسمها عشوات العوائل، كل منها تعيش في قلب العوائل المجاورة، تلتقط تفاصيل حياتها، وتعدّ، على مهل، أنفاسها.

لم تكتف عائلة مردان طول إقامتها في منازل المعقل بعدد أفرادها، كانت تضيّف بين وقت وآخر عائلة من أقارب مردان أو زوجته، أو من غير أقاربهما، لم يكن الأمر يخلو من مرح خفي، إذ أن سبباً ما يظل قائماً على الدوام بانتظار من يملأ إحدى الغرف.

ربما بدأ الأمر مع عائلة شاكر، فمنذ زمن بعيد غفت العوائل على المشاكل نفسها لتصحو على جلبة عائلة أغرب ما فيها شاكر نفسه، بعينيه العمشاوين، عيني رجل أشهب، كان الصغار يفتعلون الأسباب للمرور من أمام المنزل كي يروا النزيل الجديد، لكن الآباء بعد حين هم الذين أخذوا يتقربون إليه لأنه سيفتح الطريق أمامهم للوصول إلى عربات الدرجة الأولى، السياحية والمنام، في قطار المعقل، فقد اكتشف الجميع، مرة واحدة، أن شاكراً هو مفتش القطار ذو ربطة العنق الرفيعة الزرقاء بعلامة السكك الحديد.. ازدادت سفرات الآباء إلى بغداد ، خلال تلك المدة، لتمشية معاملات ظلت نائمة في أدراج وزارة النقل، وربما سافر بعضهم لكي يحظى بليلة في

عربة منام لاغير، حينها ارتفع صوت مردان في التعبير عن أهمية أقربائه ومعارفه، وقد كتم السكان شعوراً بالغيظ وهم يسمعونه يتلاعب بتلك القرابة، فلم يكن شاكر في الأيام الأولى لأقامته غير أحد الأقارب، لكنه اقترب مع استمرار إقامته ليصير ابن الخالة، ومع شيوع أمر عمله على قطار المعقل أصبح الأخ الأكبر، غير الشقيق، لمردان، لكن تلك السعادة سريعاً ما انقضت ولم يعد الآباء يصدقون أنهم ناموا مطمئنين في غرف الدرجة الأولى تحفّ بهم الأضواء الخافتة ونداءات الخدمة، وتحاشى مردان ذكر الرجل، فقد ارتحل شاكر بعد حادثة سقوط ابنه من على السلّم بقليل، وكانت تلك واحدة من مخاطر السكن في منازل ترتفع سلالمها الخشب أكثر من اثنتين وعشرين درجة ترتخي مساميرها وتهتز مساندها مع كل زخة مطر، فيقضي السكان شتاءاتهم منشغلين بتثبيت الدرجات ... صعد الصبي في غفلة من أمه ومن زوجة مردان حتى آخر درجتين كانتا قد تشبعتا بالماء، كانّ يلتفت بين درجة وأخرى فيرى الغرف الداخلية تغرق في الظل، والدجاجات تخوض في البرك الصغيرة وهي تملأ أرض المنزل، وقد استهوته طقطقة المطارق بعد ثلاثة أيام متصلة المطر، لينزل مهشم الأضلاع وقد ابتلعت ضجة المطارق صرخته، ظلت زوجة مردان تردد، وهي تلاحق دجاجاتها، انه كان يفتح فمه مثل سمكة مسمومة ليبتلع الهواء، حتى تصورته، كلما فكرت بعائلة شاكر، مكوماً في بئر السلّم، يرفع رأسه ليشهق، وقد نبتت على جلده طبقة لامعة من الصدف.

تواصلت العوائل، البعض منها يمر مروراً خاطفاً، والبعض يقيم طويلا بانتظار عارض يدفعه خارج المنزل، لكن الجميع بعد أن مضى ما يكفي من الزمان اخذوا يذوبون في عائلة كبيرة واحدة، عائلة لانهاية لها ينزل أبناؤها مع إغفاءة السكان ثم يرتحلون صوب محطة القطار الذي تصورته، بعد أن لملم الرجل بقايا ابنه ورحل متعثراً في ضوء منتصف النهار، مخصصاً لضيوف منزل مردان.

تبدو الأيام التي يخلو المنزل فيها من الضيوف أطول من غيرها، يقضي مردان نهاراتها بالجلوس على دكة أمام السياج مرتدياً دشداشته ناصلة الزرقة وكبوسه الصوف بني اللون، يخبيء شعراً أكلت الثعلبة هامته ومعظم جانبيه.

وقفت سيارة الحمل أمام المنزل فهب مردان من الداخل، لم يكن يجلس هذا النهار على الدكة، تطايرت لاندفاع خطواته الدجاجات وأطل الجيران: إن خزانة ثياب صغيرة واحدة، ومنضدة زينة شُرخت مرآتها، وتنوراً غازياً متآكل الحواف، علامات كافية لكشف خفايا العائلة الجديدة، وتوقع بعض ما سيسمع من مشاكلها، لكن نزول السيدة أول الأمر وقد جلست بجانب الباب، فيما توسط الزوج بينها وبين السائق حاملاً صغيرهما، غيّر الكثير من التصورات، إذ أبقت العباءة مرمية على كتفيها لكي يرى الجميع، ربما، أية سيدة ستحط بهدوء واثق في حياة منازل المعقل.

في ذلك الوقت كان قد مرّ على إحالة أبي على التقاعد ما يقرب من عشر سنوات، وهي المدّة التي سعى خلالها للإنشغال بأعمال غريبة ربما كان آخرها تأسيس جمعية أموات المعقل، للإسهام ببعض تكاليف الدفن وإقامة مآتم موتى العوائل المنتسبة لها، كانت الجمعية، كما أتصورها الآن، نفقاً يدخله الآباء لكي ينصتوا، تحت شعورهم بالعزلة والإنفراد، إلى ما يختلج في أعماقهم. جاء العديد منهم إلى منزلنا وهم يفكرون بأعباء اللحظات الأولى لفقد موتاهم، لكنهم ما أن يدخلوا ويمتد خيط الحديث حتى يختلط ثقل ما يمكن أن يقع بما يعانون من جسامة وقوعه كل حين، وهو ما قاد ناظم، زوج السيدة، إلى منزلنا، بعد أشهر قليلة من إقامتهم في بيت مردان، لنستمع إليه ونحن محشورون في الغرفة الداخلية، يحدّث أبي بصوت متقطّع عن أشياء كثيرة قبل أن ينعطف، بصوت لايكاد يُسمع، للحديث عن زوجته. كان الرجال يغرقون في الصمت بعد أن يلمسوا مياه أعماقهم، لكن ناظم، وحده، يبدأ ما أن ينتهي حديث زوجته نشيجاً خفيضاً، يتصل ويمتد.

كأنه لم يكن يعمل زيّاتاً أو كهربائياً على إحدى ساحبات الميناء، كانت يداه رقيقتين، أميّز طرقتيهما على الباب: طرقتان خجلتان تعلنان اعتذاراً أكثر مما تُشعران بحضور، فأهب لأفتح مستمتعاً برؤيته يتوارى خلف شجرة السدر في حديقة المنزل. كان يتحدث عن الشط، وعن حرارة غرفة المحركات، وعن الريح وهي تضرب، ساعة تشتد، الأبواب. قال: أترك رائحة الزيوت وأنفاس الحديد وأصعد إلى السطح لأرى الشط واسعاً في الليل، ينقطع الصوت من حولي وأراها تمشي على الموج، حافية، أمام الساحبة. أغمض عيني لحظة يتعبها المشي فتتثاقل خطواتها وتغوص قدماها،

منتظراً اللحظة التي تغرق فيها، لقد رأيتها تغرق قبل ذلك مرّات. أقف طويلاً قبل أن يعاودني الصوت، أراقبِ الموج وأحس الريح تضرب وجهي.

في واحدة من المرات القليلة التي زارتنا فيها زوجته علقت في ذهني فكرة بطاقة البريد، كانت قد التقطت صورة ملونة لها مع الصغير، لم أر الصورة لكنني سمعت أمي تتحدث عن خصلات شعر المرأة وعن رقبتها التي تميل قليلاً، وعن الطائر المطرز على صدر الثوب، كنت أتخيلها تجلس سعيدة، تشع في الضوء القوي، لم أكن أتصورها تشبه واحدة من نساء المعقل .. كان الصغير يفتح فمه، قالت، وهو يتكيء على يد أمه، ثم تحدثت عن رغبة المصور في أن يحول الصورة إلى بطاقة، صمتت أمي وقلّ حديثها عن المرأة، أخذت أفكّر، حينها، بالغرفة الصغيرة داخل الاستديو، والأضواء، والستائر، وبقي حضور المرأة في الصورة التي لم أرها أشد تأثيراً في نفسي من رؤيتها خارج المعقل في الأسبوع الذي يمضيه زوجها مناوباً على الساحبة: في سيارة تخطف، مصادفة، أمامي، أو قرب كازينو الساحل مع أحد الغرباء، في اللحظة التي أنزل فيها إلى الضفة.

في البيت تتملكني الرغبة في أن اسأل أبي لكنني أتشاغل بسجل الجمعية، أرى يده تشير إلى تسلسل العوائل وأسمع شكواه عن تأخر اكتمال القسط، وعن مساوئ الجمعيات، ومن دون أن أنظر إليه أحس بمعرفته فأفكر بالرجل وهو يتوارى خلف الشجرة، وبالنشيج الخفيض وهو يملأ المنزل، وبالمرأة وهي تغرق في أمواج الليل.

أتساءل، بعد أن مرّت السنوات إن كنت قد رأيت العائلة تجتمع في بطاقة بريد، وهي التي غامت نهايتها أمامي، وإن كان الرجل قد وقف حقاً إلى جانب زوجته، يخفض رأسه قليلاً ويمد يداً للصبي، فقد اختفت المرأة قبل أن يخطو ابنها خطواته الأولى، كان حدثاً مفاجئاً، بقي الرجل بعده زمناً في بيت مردان، لايكاد يرى في الأسبوع الذي ينزل فيه عن الساحبة.. تحدَّث أبي، بعد ذلك، عن انتقالهما إلى الشعيبة وقد استقال الرجل من العمل في الميناء، ثم تحدث عن موته بعد مرض غريب من دون أن تتمكن الجمعيّة من الإسهام بتكاليف دفنه.. لم أسأله عن غياب المرأة، وعن بقاء الرجل وحيداً في بيت مردان، كانت الواقعتان تختلطان، وكنت

أحدّث نفسي، كلما تذكّر أحد موت الرجل، بأنه ما يزال هناك في إحدى غرف بيت مردان، وبقيت أعواماً أتوقع أن أرى زوجته، تحيا في سعادتها، كلما خطفت سيارة أمامي.

لا زيارات للغرباء

رسالتان قبل هذه ، ولا من مجيب ، كانت رسالتك الأخيرة تحمل نذر المغادرة والسفر ، هل تحقق شيء من هذا ؟ وإذا لم تكن هذه الرسالة الآن بين يديك أنت، فيا ترى من الذي يقرؤها نيابة عنك ؟

خفق قلبي ذاتِ يوم في أحد شوارع المدينة عندما أصبح أحدهم قبالتي ، كان يشبهك،انتظرت أن يمر لكي أتأكد أنه ليس أنت، ثم اتكأت على جدار قريب وتنفست بعمق ، كان خوفي عظيماً أن أفقدك هناك لأجدك هنا.

أعمل الوقت كله، من الثامنة صباحاً حتى السادسة مساء، تتخللها راحة من الواحدة حتى الثالثة. السبت نصف عمل. الأحد العطلة الرسمية. وفي الليل في البيت، العمل على الكمبيوتر، كتابة، تنضيد، إعداد برامج.. أفتقد جو المقاهي عندنا ، أفتقد العرق ، وجلسات العرق ، لا إتحاد ، لا حسن عجمي ، أشرب في البيت ، بلا أصدقاء ، بلا أغان ، افتقد السجال والنقاش والمعارك التي كانت تنشب بين الأصدقاء . أفتقد البصرة ، العشار ، شارع الوطني ، فندق بيروت الذي كنت أنزل فيه كلما زرت البصرة ، من الشمال ، أو من الجبهات ، أفتقد الكورنيش في الليل ، وأنا سكران ، أطرق باب بيت الوزير متصوراً أنه بيتها.

في أحيان كثيرة تسقط ذاكرتي أمامي مثلما تسقط ثمرة الرقي ، من أعلى سيارة الحمل على إسفلت الطرق الخارجية ، فيتشظى قلبها الأحمر .. وتذوب. كنت أذوب ممروداً مع قلبها، تمرّ بي سيارات الحمل ولا تبطيء ولا تتوقف ، فلا معنى لوقوفها لأجل حبة رقي منفلشة على الإسفلت .

نزلت إلى المكتبة هذا الصباح ، كان مدير المدرسة يقودني في ممرات منزله فتخترقني روائح الطبيخ وأنفاس العائلة ، وضعت كتاب الـ"سر وليس بج" على المنضدة وحدثته عن شعوري بالخسران وعن ضيق العالم ، لم يكن العالم بالنسبة لي

أوسع من نعال الملحِ ، قلت له ، ثم وجدتني أتحدث عن ثمن العبد في الصحراء الأفريقية ، لم يكن يقاس بأوسع من قطعتي ملح بحجم قدميه ، رفع الكتاب وقال : ستنزل معي ، في آخر المنزل فتح باباً حديدياً صدئاً ودخل بخطوات بطيئة ، أضاء مصباحاً يتدلى بسلك طويل نسبياً ، قال : يمكنك أن تدخل .. رائحة كثيفة ، رطبة ، بددت روائح المنزل ومنحتني شعوراً غريباً ، نزل درجات قليلة ونزلت خلفه ثم انعطفنا إلى اليمين ، أضاء مصباحاً ثانياً فانفكت الظلمة عن جدران برفوف خشب ملأى بالكتب ، أكملت خطواتي كأنما لأفهم معنى النزول إلى مكتبة في سرداب.

سأرسل لك صورة عائلية في رسالة قادمة . لقد ذكّرتني عبر طلبك الجميل بأننا لم نلتقط صورة، أنا وبتول وسميّة منذ أن سافرنا عداِ صور المعاملات الرسمية.

أفكر بكتابة قصة أخرى عن المعقل ، ما يلح علي منها أسم بطلها:
عبدالكريم بدر ، ارتسم أمامي من دون أن أبحث عنه ، كما لو كان منتظراً في جانب ما من ذهني وما إن بدأت خيوط الحكاية تنتظم حتى أخذ يضيء ليذكرني بنفسه ، ربما كان قد أضاء قبل انتظّامها ، لكن لا يمكنني القول بأنني سأكتب القصة استجابة لحضور الاسم ولقوة إلحاحه ، فلم يسبق لي أن كتبت قصةً على هذا النحو ، شخصيات قصصي كما تعلم غالباً بلا أسماء ، فالقصص نفسها تستغني عن الأسماء ليطفو الناس فوق مياه السردِ معينين بصفاتهم وهواجسهم ، حاضرين بمخاوفهم وأحلامهم ورؤاهم ، ذلك ما يحرّك القصة حقاً ، وما يحرك حياتنا .

أكيد ، شعرتِ بالإرباك الذي كنتُ فيه ، أثناء قراءتك للرسالة الماضية ، لقد وصلتُ إلى عمّان وكدت أموت من التعب والوسخ ، تجاوز الخيارات التي اكتنفت رحلتي كان أشبه بمعجزة ، خاصة وانه كان هناك أكثر من سيناريو ، أقلها كان أكثر مأساوية من مأساويات حياتنا .

نعم، سأحدثك عن نفسي، وصلت ليبيا قبيل عيد الفطر، تعيّنت مدرّسا للرياضيات في إحدى مدارس سرت، منذ 1-3-95 ولغاية الآن لم أتسلّم فلساً واحداً، وما زلت أعاني الإفلاس، الرواتب هنا لا تصرف إلا نهاية العام الدراسي.. ولا أدري متى ينتهي هذا العام .. لا عليك .. سرت مدينة ساحلية صغيرة تقع على خليج سرت المشهور، أقف ساعات أتطلع لصحراء المياه التي أمامي حتى أتلاشى مع أفق

البحر والسماء، بينما تمتد خلفي صحراء حقيقية من بشر ورمل.. أتيه ساعات بين صحراء الرمل وصحراء المياه ، وفي رأسي تشتبك مشاهد لا عدّ لها ، وجوه تطل وأخرى تغيب،أيد تلوح وأصوات، أصوات لامعنىٍ لها لكنها تدفع بي بعيداً لسنوات شرق البصرة، تصورتني نسيت تلك السنوات المرة بعد أن وصلت إلى آخر اليابسة لكن ساعة تيه واحدة كافية كما يبدو لاستعادة وجوه كثيرة غائبة .. أصرخ ، وحدي ، ماذا تريد من العالم ؟ ليس ثمة أنبياء لتقتلهم .. يفزعني صوتي .. أعود آخر النهار إلى غرفة صغيرة، حشرنا فيها أربعة عراقيين يهيمن علينا صمت ثقيل.

أقرأ كتاباً ممتعاً أعارني إياه مدير مدرسة قديم، رجل عتيق له مكتبة في سرداب بيته كلها في التاريخ وأدب الرحلات، وها أنا أستمتع بأولى رحلاتي معه خلال (رحلات إلى العراق).. أحب اتساع الحياة بالصورة التي كان تحقيق ذلك فيها ميسوراً في عالم برئ نوعاً ما على الرغم من كل الأحداث الهائلة التي جرت على الأرض ، كان العالم قبل قرن أو قرنين أكثر شساعة وحريّة ، ورجل مثل المستشرق سر بج كان لابد سعيداً بحرية تتحقق له وهو يذرع تراباً بكراً وبدائياً ، متذوقاً الثمار غير المتاحة لأحد سواه وعارفاً ما لم يعرفه أحد .

أشعر أنني فرح ، رغم أن لا شيء يدعو لذلك .

أتذكر منحوتة لجواد سليم ..

امرأة خصبة العري ، يمناها مرفوعة ، منها يتدلى قلبٌ فاتن الاستدارة ، ولأن المسافة بين القلب والذراع يوحدها خيط شفيف لم أكن أتصور القلب مرتفعاً إلى الذراع .. إحساس داكن، كثيف، يتوعدني: إن اليد التي أفلتت القلب مرة لن تستعيده إلى الأبد.

لقد أحببتها كثيراً، والآن، لا أستطيع أن أتصورّها غير موجودة، وأنني لن أراها بعد الآن. هناك أمور كثيرة كانت بيننا، حوارات غير منتهية، تاريخ، سيرة العائلة، أشياء كثيرة.. لماذا ؟ لماذا لم أسارع إلى أن افهم منها كل شيء ، لم أكن أعتقد أن الموت خلف الباب وأنها يمكن أن تنسحب دونما نظرة أو كلمة ، تشعر أن شيئاً ما قِد إنُطفأ أو غاب من حولها فتستلقي على سريرها الحديد وتغمض عينيهاّ وتموت،من يصدق أنها يمكن أن تموت بمثل هذه الألفة والسكون، كأنها ماتت مرات

حتى غدا الموت معها رحيماً شفوقاً يضرب بجناحيه هواء الغرفة ثم يحط على عمود السرير، يضم جناحيه ويتملاها قبل أن يفتحهما من جديد، لم تكن رمانتا السرير قد أحدثتا أي صوت حينما أسندت يدها إليه وهي ترفع جسدها لتستلقي، أو حينما ضرب بجناحيه وحطّ على العمود .

أنا في المكتبة الآن ، أفكر بأن علي الانصراف لأذهب إلى مكان أكثر حيوية ، مكان غير محدد ، غير معروف ، إلا أنه مكان مشتهى ، أتمنى لو إني أنشأته لأرحل فيه بسعادة وجودي .

متى أيها الجسد الذي سيموت، تنتهي من كل هذا اللغط ؟

وهكذا تجد أن من الضروري أن نتعامل مع الحياة على أساس أن نعيشها كما هي ، خارج التصورات الجاهزة : إنها فوضى الشمسّ القديمة وهذه وقائعها ، لو فرضنا ثمة تلة منفردة وهي شيء مألوف ، وهناك جرة منفردة وهي أيضاً شيء مألوف .. لو وضعنا الجرة التي هي شيء مألوف ، فوق التلة المنفردة التي هي شيء مألوف ، سيتشكّل محيط جديد غير مألوف ، وهكذا فأنت بحاجة إلى أن تغيّر باستمرار الموقع الذي تنتظر منه .. ليست هناك مدن فاضلة، ليس هناك أناس مقدسون، ليس هناك زمن مقدّس، ليست هناك أرض مقدّسة، هناك نظرة إلى العالم، قفزة للنظر خارج الطريقة المعهودة في رؤية الأشياء.

آه يا صديقي .. وجّهت أسلحتي إلى العالم وصرخت بفم الكتابة المتسع ، ولم يكفني ضيق ذلك المصير.

نحن في زمن السرطان ، هذا ما أقوله وقد يضحك الجميع ، نحن في زمن السرطان هنا وفي الداخل ، الفن أما أن يجاري أو يموت ، والحريّة هي نتاج ملاعين ، أهميتها لا تنحصر بهم ، إنها تتسع للجميع ، نبي مبارك أو جلاد ، الجميع يخوضون في مياه حلم ملعون.

أخشى ستار الغربة الثقيل، حملت معي مكتبة عراقية صغيرة تعينني على التحليق في فضاء دونما حدود ، أخشى صدأ ذاكرة المدينة في روحي. .

انتقلت إلى مدينة أخرى أقل ضغطاً على حياتي عازماً على مواصلة دراستي ، إنها فرصة مهمة لي في هذا البلد الواسع ، سأبدأ هذا الشهر بتقديم أوراقي لأباشر الدراسة بعد شهرين ، عامان لدراسة اللغة ومثلهما للاختصاص.

هل في كلامي شيء من الحزن ؟

تُلبسني فواصل الزمن، دائماً، ثوباً حزيناً.

الساعة الآن ما تشاء

والزمان زمانك أنت ، زمان الذات القارئة

أحسب أنك تقرأ هذه السطورِ، حيث يتشكل الزمان باصطدام يديك بهذه الورقة، إنه اتصال آخر إذن (ألا يفصح فعل الكتابة عن انشقاق الزمان ؟) تكون فيه تلك الصور ذكرى، وتكون صرختي قد طارت في أثير العالم، ككل أقوالنا وأعمارنا وأحلامنا.

كنت سأرجيء الكتابة إليك لكن الحلم ألجأني إليها .. لقد رأيتك في منامي .. بين الشوارع القديمة والساحات ، في الدرابين البعيدة المهجورة الصامتة ، كان شيء ما منك يعتمل في حلمي ويترك قطرة من دمع تترقرق في روحي ، قلت لنفسي أشتاق له وأنا ما زلت هنا فكيف لو سافرت واستيقظت واستيقظ النخل في قلبي ؟

كلما إنفلتت الخطوة من إشتباك الزحام، وأنفك الجسد من تلاحم الأجساد في مدينة الحاضر،وجدت نفسي وقد انسللت منفصلاً عن الروائح والأنفاس، في إحدى قاعاتِ المتحف، مراقبا العيون الحجريّة المحدّقة، واللحى المجعّدة، والأثواب الطويلة المطرّزة، كما أراقب تكور القبضات على السيوف والسهام والفؤوس، مثلما أرى الأيدي نفسها، على ألواح أخرى، وقد إلتفّت أصابعها إلتفافاً رحيماً على سيقان السنابل، واستدارة الأثداء، وامتلاءة الأذرع، أيد عديدة، محفورة ومخددة، تمتد على الكسر والجدران، وتنحت على الأبواب والسقوف وتيجان الأعمدة، وفي الزوايا والواجهات، تُسبّح أو تحفر، تعطي أو تأخذ، تبني أو تهدم، تفتح أو تُغلق، تحيي أو تميت. إنها تمنح الخارج بروائحه وأنفاسه معنى مضاعفاً، إنها تصنعه، بشكل ما، وتسهم في زواله، كما لو كانت صلبه المصبوب في أرحام الحجر. صلبه الأبدي الذي لايحول.

وصلت ليلة نزول الثلج ، تسلمت الجواز عند الثامنة من مساء 1-7 وسافرت عند الخامسة فجراً ، لم أكن أملك من الوقت ما يكفي لوداع أحد ، حتى حقائبي حزمتها أختي ، كان كل شيء كالحلم ، تقطع السيارة مئات الأميال وسط دهشتي وذهولي من سؤال واحد : إلى أين ؟ حين اجتزنا الحدود إتصل السائق بزملائه من سائقي البصرة فاخبروه أن الثلج بدأ ينزل وأن من الأفضل مواصلة المسير قبل أن تتقطع الطرق ، كان ذلك عند العاشرة والسائق متعب ، قال لنا : سنصل عند الواحدة أو أكثر وهناك تنتظرون حتى الصباح ، نتصل عندها بمحمد ليأتيكم ؛ هنا نسيت كل شيء ، هل سألتقي محمداً حقاً ، لا أكاد أصدق ، الطريق وعر والثلج يواصل انهماره ، هل رأيت بصرياً يهيم في الثلج ؟ كان ذلك السؤال يتكرر في ذهني فتتصاعد في نفسي رائحة بعيدة لصيف حار وأحسني بعضاً من شجرة على جرف رملي ، ضباب كثيف والرؤية أقل من متر والسائق يطلب أن أدعو الله لنجتاز المأزق .. أوقفتنا دورية شرطة ، قالوا أمامكم ضباب كثيف والثلج سيتساقط بكثافة أكبر ، وصلنا عند الواحدة والنصف فنزل السائق ليرى جماعته الذين انتظروا طويلاً ، كان احد أصحابه قد اتصل بمحمد وأخبره بمجيئنا فتفاجأ كثيراً وأرسل سيارة كانت بانتظارنا أمام المنزل ، نقلنا حقائبنا وسرنا في الثلج مرة أخرى ، محمد يتصل عبر الهاتف الخلوي ليسأل أين وصلتم والسائق يجيبه صائحاً ، وكان الثلج قد غطى الشوارع ، صعود ونزول والثلج غطى الشوارع .. دقائق تصعب الكتابة عنها ، لا أعرف غير أني عشتها كما أعيش نزولاً خاطفاً في نفق .. السيارة تبطئ سيرها خشية الانزلاق وأنا ألمح من بعيد رجلاً يقف تحت الثلج يلف رأسه بكوفية حمراء والريح تأخذه من كل جانب .. لم ينتظر محمد وصولنا إلى البيت ، توقفت السيارة فصعد وجلس قربي وقال لي : أخيراً

أتخيّل كيف تندغم حواسك مع الأمكنة ، سيما التي عشنا تحت ظلالها ، وتدنست بجمالنا البشري .. ثمة إشارة كامنة مازلت أتحسس بريقها على البعد في النادي ، القاعات ، الممرات الخلفيّة للكليّة ، تتمثل حيناً كأنها فورة عابرة من التداعيات والصور ، توجز النهارات التي تحدّثنا فيها طويلاً وعيوننا على نسائنا العذراوات.

أخيراً وبتردد من سوء الفهم أبعث إليك هذا القميص راجياً إن تتقبله ، ليس بسبب أنِ لك في ذمتي (الخسيسة كما تقول) أكثر من هدية لأكثر من مناسبة ، إنما لمجرد إحساسي بأنه قد يعجبك بلونه الهادئ الذي بوسعه الاشتباك مع سمارك المشع . هل تتذكر عندما كنا نبدي إعجابنا العفوي بجمال الملابس المحنطة خلف واجهات المحال في شارع الوطن ، تقول : يالها من نقشة جميلة على الجيب ، كان يمكن أن تبدو أجمل لو أنها..

يا لها من أمسيات.

كانت تسبقني قليلاً، لن أنسى ذلك، وكنت أسرع محاولاً اللحاق بها،متجنبا قدر الإمكان مياه التصريف التي تمتد في مشروب طويل، مستعداً للحظة التي تدخل فيها إلى الزّقاق وقد إنفتحت عباءتها كأنما تستقبل عطونة الهواء الخفيفة، تلمُّ العباءة وتلتفت إلي، ثم تواصل خطواتها.

أتذكر ذلك كله كما أتذكر الزقاق الذي لم يكن طويلاً لكن وقوعه في قلب محلّة أم الدجاج، بسوقها المزدحم، يجعلنا نستغرق وقتاً ليس بالقصير في الوصول إلى أي من مدخليه: مدخل سوق السمك، حيث يمتد أمامنا، ما أن نستدير ،وتسلمنا زفرة الهواء إلى عطونة أجوائه الظليلة، أو مدخل الخضّارة، حيث يكون علينا أن نستدير أكثر من مرة قبل أن نجد نفسينا في منتصفه، لذلك لم أكن أتصور بيت خالي بأناسه وأشيائه بيتاً عادياً وهو الذي يقع في نهاية الزقاق.. كنت أتصوره كلما جئته مع والدتي من مدخل سوق السمك وقد فُرشت أرضيته بالسمك من كل نوع وتصاعدت زفرته، مثلما أتصوره وقد ضج بالفواكه والخضار كلما جئته من مدخل الخضّارة، وكان أبناء خالي يتراءون لي، في الحالين، مشغولين بالبضاعة التي يضيق بها المنزل، أيديهم تقلّب السمك أو تعدّل الفواكه أو ترش الماء بأصابع مفتوحة.

كانت امرأة خالي . التي ستموت بعد أكثر من عشرين عاماً بالسرطان . تسألني في كل مرة أذهب فيها، إن كنت أرغب بالذهاب معها إلى أهلها في النجف، ولم أكن أجيب، لم يكن خوفي من النجف وحده ما يدفعني إلى الصمت، كان يكفيني أن أظل هناك تأخذني الروائح والأصوات بانتظار الظهيرة، يعود خالي بنظارته داكنة

الخضرة وبدله عمله الزرقاء، وينقطع ضجيج السوق، فأتجوّل بين الغرف، أنظر إلى صور العائلة على الجدران وأراهم ينامون في الرطوبة، أيديهم مثنيّة تحت رؤوسهم وأفواههم نصف مفتوحة، وجوههم غريبة في نومها لأتشبه الصور وهي تنظر مبتسمة من وراء زجاجها الشفيف.

لم أكن منشغلاً، وقتها، بغير الأجساد التي يذهلني إنفصالها عن الصور، بلحظات سعادتها التي لاتزول..

كنت أغيب في اللحظة العميقة الفاصلة..

أغيب ولا أنسى.

حين احتضنته شعرت أني استعيد جزءاً مفقوداً من جسدي وروحي.. هل جرّبت أن يحبك احد من دون أن تدري لماذا ؟

الصحراء كانت مقصدي ، جنوب مدينة ورزازات ، استقبلني قيظ أليف لايشبه ذاك الذي يُطبق بفكيه النحاسيين على تخوم البصرة ويقفل مع المغيب عائداً إلى سرّتها .. تململت داخلي ، أثناء الرحلة ، أشواق تعوذت من بطشها وتحاشيت أن أفسح لها المجال كي تسطو على تلك الفرحة الصغيرة.

أهو الوطن مرة أخرى ؟

ما زلت أعيش على ما حملته من مال، سأقتصد في نفقاتي كثيراً، خصوصا إن يحيى سيغادرني لأظل وحيداً، سأغير سكني، ذلك ما أفكر به الآن، وأعيد النظر بحياتي.

أتلمّس في الليل أو في النهار ، في الصحو أو عند الغياب ، أماكن حميمة عشتها في البصرة القديمة ، كأنني أعيشها ثانية ، استعيد فيها حضوراً طفولياً راسخا ..أدعوك لزيارة أجمل كنيسة ، ربما من وجهة نظري ، في محلة الباشا ، وراء مدرسة النبراس حيث قضيت تعليمي الابتدائي ، قريباً من جسر الغربان ، في ذلك المكان الأبدي الهدوء ، الأزلي النكهة بسلامه وشفافيته .. كنت صغيراً أنظر إلى الكنيسة كأنها معجزة ، في وسط معماري له نكهة مغايرة ، وحينما تخطو ووراءك الجسر والمفرق المؤدي إلى سكة الحديد المهملة ، وإذ تتمادى خطواتك تجاه بيت

حامد النقيب ، هناك مقام الخضر ، وجسر نظران وثانوية البصرة للبنين حيث أكملت دراستي.

في هذه الأماكن تنشأ القصص ، تنمو وتحيا ، إنها أماكن للأبد مثل سحر روائي دائم . هناك ستجد التاريخ الحقيقي لحياتنا يدبّ ببطء مثل بزاقة ، وهناك يكون للصداقة معنى ، وللزمن مذاق الانزواء والعزلة ، واللامبالاة ، وحيث يتدبّر الناس أحوالهم بمخزون من الحيلة الساذجة ، والاكتفاء.

انتبهت إلى أن القلم مختلف، يا الهي!!

أمامي أكثر من قلم، والظاهر أني انسجمت معك وأثناء فترات رشف القهوة أخذت قلماً آخر، القلم الأول لونه أحلى، سأكمل به.

ثم الثلاثاء يوم التصوير الفوتوغرافي : يوم مسل نقضيه في غرفة صغيرة شبه معتمة لمعالجة الأفلام وتظهيرها ، الجانب المسلّي هو تلك (الالتباسات) التي تشيعها الظلمة ، والضحك القصير المتقطّع!

الحقيقة إني وفي يوم الاختبار ، بناء على نصيحة فنان هولندي صديق ، أخذت معي كل أعمالي تقريباً، أعمال أكثر من اللازم : أربع لوحات زيتية ، وحوالي مائة تخطيط وسكيتش ، بل أنه نصحني أن آخذ معي حتى أوراقي الصغيرة المخربشة لكي يكون قبولي مختلفاً كما قال . حين ذهبت وجدت الطلاب يدخلون القاعة فارغي الأيدي ويأخذون أوراقاً من فوق الطاولة ويرسمون ، بدوت بينهم غريبا بألواني وشخوصي .. هم يعتمدون التنفيذ الآني: أحمر وفوقه ازرق ومساحة كبيرة صفراء، وكأن على تفاحتهم أسنان الحضارة ! الغريب في الأمر أنني قُبلت فور رؤيتهم أعمالي، وقبل الاختبار العملي الذي يتم عادة أمام المشرفين، لا أدري لماذا راودني إحساس بأن حركتي تلك قد فُهمت على أنها استعراضيّة!

ذهبنا مرة معاً إلى مستشفى الموانئ وكان يعاني من البروتستات وانحباس في البول ، بعد فحصه قال الطبيب أن الحالة ربما تتكرر ، أدعو الله ألا تكون قد تكررت معه.

المدينة تبدو مهجورة من النافذة ، والهدوء شامل رغم أن الساعة تعدت الثانية بقليل ، اليوم عطلة ، تجتمع العوائل داخل البيوت ، يحضر الغائبون ويلتم الشمل ،

الأجداد مع الأبناء والأحفاد ، تقليد سنوي يعتزون به ويمارسونه بكثير من الجدية ، لا زيارات للغرباء ، أصدقاء كانوا أو جيراناً ، الأهل فحسب يفتحون هدايا الأطفال التي ألقاها بابا نويل البارحة من المداخن ، ويفرح الجميع.

لست بعيداً عما حدث ويحدث

كان الدم الذي سال دمي ..

رأيته يقطّر من شاشة التلفزيون ليتجمّع نهراً يصب في سريري ويبلل وسادتي.

هل تفكر بالسفر؟

أُؤكد لك أن مثل هذا القرار سيكون شاقاً بالنسبة لي أكثر من مشقته عليك..

هل من الضروري أن أكتب عن معنى بقائك بالنسبة لي، بكل مايحمل من مصاعب، شيء ما ينبض في داخلي ليعيد نداء من الصعب أن أُدركه لكنني أُحسّ قوته وأهمية وجوده لحظة أُفكر بك وأنت تمرّ في شوارع البصرة تتنفس وجوه أناسها وتغيب في درابينها الظليلة الضيّقة.. يراودني شعور غريب، في الساعات المتأخرة من الليل حينما يخف ازدحام المحطات وتبدو عربات المترو شبه خالية، أجلس جوار النافذة وأنظر إلى مدن الضوء والحديد محاولاً نسيان شعور بالخوف يحفر أعماقي.. هل أُذكّرك بساعات الخوف العميقة المعتمة، وهل نسيتها حقاً؟.. إنها تجدد إحساسنا بموت يصعب أن تغيّبه الحكاية وهي تتحرك بين المدن والوجوه، بين الوجوه وقد أخذتها المدن، وبين المدن وهي تحيا في التفاصيل الدقيقة غير المرئية للوجوه.

كتبت قصص المجموعة بين عامي 2004 – 2007

الفهرست

1.إهداء

2.إلى الأبد

3.رأى الطفل

4.منطق الطير

5.اتصال

6.قطرة دم لاكتشاف الجسد

7.قرب المدرسة الإنكليزية

8.إغماض العينين

9.رجل كثير الأسفار

10.العدسة

11.عينا رجل المترو

12.عشق الحدائق المنزلية

13.زهرة منفردة دقيقة الأوراق

14.طائر من معدن

15.النزول في الظلام

16.الباب الشرقي

17.غسل الوجه

18.علي الأحمر

19.إلقِ ما في فمك

20.بطاقة بريد لأموات المعقل

21.لازيارات للغرباء

الغلاف الأخير

إننا أمام كاتب يمتلك موهبة حقيقية في كتابة القصة القصيرة. ليس البناء وحده ذكياً وإنما أيضا الموضوع الذي تعكسه القصة. إغماض العينين ليس خياراً وجودياً بقدر ما هو إشارة إلى العجز الذي يعيشه الناس العاديون في العراق تجاه الجريمة التي ترتكب بحق شعب لايملك سوى القدرة على إغماض العينين. قصة إنسانية تعبّر عن فظاعة الظلام. قصة عن جرح الروح.

فاضل العزاوي

لعله بين مجموعة من الكتاب العراقيين الذين ظهروا في العقدين الأخيرين، يمثّل قيمةً لافتةً في مسار الأدب العراقي خلال سنوات الحصار والعزلة عن العالم، فأعماله على قلّتها، تشير إلى ثبات في التقاليد الأدبية العراقية التي كانت دائماً على صلة بالأدب العالمي وتياراته الجديدة. إنه يمضي إلى تجارب تشير إلى كاتب تشغله العلاقة بين المادة المفكر بها قصصياً وبين تقنيتها، من دون الإهتمام التقليدي بالحبكة وتطور الشخصيات في أماكن وأزمنة محددة. ومع أنه يولي المكان اهتماماً لافتاً، غير أن شخصياته تعبره مثل أطياف غير مستقرة، فهي تجسد التشظي والإمحاء، لا الثبات والوضوح..

فاطمة المحسن